الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد ابن باديس-مستغانم-
كلية الأدب العربي والفنون
قسم دراسات أدبية

الرحلة الورثيلانية
" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"
لسيدي الحسين بن محمد الورثيلاني . مقاربة تحليلية .

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر في
تخصص أدب عربي

إعداد الطلبة :
جميل شهيماز
حجبة قدور

إشراف الأستاذة:
مكاوي خيرة

أ. د. مكاوي خيرة
أستاذة التعليم العالي
كلية الأدب العربي و الفنون
جامعة مستغانم

لجنة المناقشة:

الأستاذ (ة)	الرتبة	الصفة
هشماوي فتيحة	أستاذة محاضرة (أ)	رئيسا
مكاوي خيرة	أستاذة التعليم العالي	مشرفا ومقررا
لطروش فتحية	أستاذة مساعدة (أ)	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 2023/2022

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أولا وقبل كل شيء الحمد لله الذي أعاننا بقدرته إلى أن نصل إلى ما نحن عليه ونتم عملنا هذا المتواضع.

نتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى كل من ساندنا من قريب أو بعيد على إنجاز هذا العمل، ونخص بالذكر الأستاذة المشرفة التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها ونصائحها القيمة التي كانت عونا لنا في إتمام هذه المذكرة، ونشكرها على كل المجهودات التي بذلتها لتضعنا في أحسن صورة.

أن نشكر كل موظفي كلية الأدب العربي بجامعة عبد لحميد بن باديس – مستغانم – الذين بذلوا جهدا في سبيل تلقينا العلم النافع.

وكذلك لا ننسى عمال المكتبة الذين يسهرون على احتياجات الطلبة من مراجع التي ساعدتنا كثيرا في إنجاز مذكرتنا.

إلى كل من ساندنا صغيرا وكبيرا على إنجاز هذه المذكرة

إليكم جميعا نقول بارك الله فيكم وجزاكم الله كل خير

إهداء

أهدي تخرجي إلى من سهرت وتعبت وبذلت الغالي

والنفيس من أجلي رمز المحبة وبلسم الشفاء

إلى جنة الله في الأرض "والدتي العزيزة".

إلي الجسر الصاعد بي إلى الجنة ومثلي الأعلى

في الحياة "أبي" أشكرك من صميم قلبي.

حفظ الله القلوب الطاهرة العزيزة ورياحين حياتي

اخوتي وأهلي أهدي تخرجي هذا لكم حفظكم الله جميعا

إلى أساتذتي جميعا خاصة قسم دراسات أدبية

إلى أصدقائي وزملائي ألف ألف ألف مبروك التخرج

وشكرا.

شميماز

إهداء

إلى صاحب الوجه الطيب والسيرة العطرة والأفعال الحسنة الذي لم يبخل على طيلة حياته "أبي العزيز".

إلى من أفضلها على نفسي، والتي ضحت من أجلي ولم تدخر جهد في سبيل إسعادي على الدوام "أمي الحبيبة".

إلى نور حياتي وضياءها أختي نور الهدى وإلى الأحب إلى قلبي أخي نوح.

إلى من جمعتني بهم أجمل الصدف في الحياة، فكانوا خير الرفقة ونعم الأصدقاء.

إلى من تمنوا إلي الخير سرا أو جهرا، إلى كل من أرسل لي نواياه الطيبة ... شكرا من القلب.

قدور

مقدمة

عرف الإنسان الرحلة منذ عصور قديمة، خاصة في القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي، ومارسها في عهوده الأولى فعلا طبيعيا أنجز لظروف وأسباب معيشية مختلفة، ولعل أول رحلة قام بها الإنسان في تاريخه هي رحلة آدم وحواء من جنة الفردوس إلى الأرض، في الأرض يبدأ الإنسان رحلته الطويلة بحثا عن المعرفة وتحقيقا لأحلامه، طموحاته مطالبه المادية والروحية.

لذلك يعد أدب الرحلة واحدا من أقدم أنواع الآداب، هو الأكثر تشويقا واكتشافا للعالم، وقد لقي هذا الأدب اهتماما واضحا من العرب قديما من جميع الشعوب، إذ أن الرحلة تسجل جغرافيا المكان، وتصف الظروف التاريخية والاجتماعية في حقبة زمنية معينة بشكل دقيق جدا تعرض التفاصيل التي عاشها وعاصرها الرحالة خلال ،سفره، من هنا استمدت الرحلات متعتها حيث إن كل من يقرأ هذا الأدب يشعر بالمتعة الكبيرة ويجني فائدة عظيمة بالنظر إلى أنه يخوض تجربة الرحلة يعيش أحداثها وهو في مكانه.

شكلت الرحلة عاملا هاما عبر مراحل التاريخ في حياة الشعوب عامة وفي حياة العرب والمسلمين خاصة، وازدادت هذه الأهمية قوة خلال أزهى عقود الإسلام حيث كانت الأغراض من الرحلة مختلفة، فمنهم من كان يتجول عبر المدائن والبلدان في رحلات طويلة وشاقة أغلب الأحيان قاصدا التجارة وجلب السلع، ومنهم من قضى أياما طويلة لزيارة الأماكن المقدسة في أرض الحجاز قصد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام(الحج)، ومنهم من كان يقطع المسافات ويتحمل الصعاب لزيارة حواضر العلم للجلوس إلى العلماء والتروي بسائر العلوم. لقد كان العالم المغاربي عامة والجزائري خاصة يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته العلمية، ولذلك كان عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر، عالم المشرق الذي كان مصدر إلهامه، الذي كان يتصدره قطب البيت الحرام(مكة). وعليه فكثير من العلماء الجزائريين ممن كانوا يرون أن شخصياتهم تكتمل عندما يذكرون أن لهم رحلة إلى المشرق، مُنوهين بذكر أسماءهم، ومسجلين إجازتهم، وذاكرين مصنفاتهم التي أطلعوا عليها أهم المشاهد المقدسة.

من بين أهم الرحلات الحجازية التي اشتهرت بالمغرب الأوسط(الجزائر) في العصر الحديث، رحلة حسين الورثيلاني وتعد "رحلة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ومن بين أكبر الأعمال التي أنجزها الورثيلاني في تاريخه، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، إذ نالت مكانة مرموقة وبمختلف الأنواع واقعية كانت أم خيالية، وقد كانت في بداية فن الرحلات مقتصرة على رجال التاريخ والجغرافيا فكانت مادة خصبة لهم، كونها تؤرخ لفترات معينة.

يعتبر الرحالة حسين الورثيلاني واحدا من بين الرحالة الجزائريين الذي اهتم بمنطقة المغرب العربي وحتى مصر والحجاز، حيث وصف رحلاته ومختلف الجوانب الاجتماعية من عادات وتقاليد وسياسة من نظام الحكم وحال الراعي والرعية، اقتصادية من معاملات وأسواق، صناعات وعملات، تعتبر هذه الرحلة مصدرا من مصادر التراث العربي عامة والجزائري خاصة.

لدراسة موضوع : **الرحلة الورثلانية " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" لسيدي بن محمد حسين الورثلاني – مقاربة تحليلية .** اخترنا أن يكون إشكال البحث كالآتي: **ماذا نقصد بفن الرحلة؟ وما مكانة الرحلة الورثيلانية في الحقل الأدبي؟ وفيما تتمثل مضامين هذه الرحلة وكذا جماليتها؟** ولاستفاء متطلباته المعرفية والمنهجية قمنا بتقسيمه إلى:

مدخل تحت عنوان: " قراءة في المفاهيم"، يتضمن المفهوم العام للرحلة (لغة واصطلاحا) وكذلك أنواع الرحلة.

أما الفصل الأول وعنوناه بـ:" **الرحلة الورثيلانية _ نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار_" لسيدي حسين بن محمد الورثيلاني،** قسمناه إلى مبحثين، تطرقنا في المبحث الأول إلى التعريف بكل من المؤلِفِ والمؤلَّف، في حين تطرقنا في المبحث الثاني إلى منهج كتابة الرحلة الورثيلانية وقيمتها العلمية.

وفصلنا في **الفصل الثاني: "مضامين الرحلة الورثيلانية"** ، تطرقنا فيه إلى مبحثين يضم المبحث الأول المضمون العلمي للرحلة، أما المبحث الثاني فكان متعلقا بالمضمون الديني.

وخصصنا الفصل الثالث ." **جمالية الرحلة الورثيلانية – البناء الفني والأنساق الثقافية** "، بمبحثين تضمن المبحث الأول البناء الفني للرحلة، والمبحث الثاني تضمن بعض الأساليب المعتمدة من الرحالة. وصولا في آخر المذكرة إلى خاتمة.

أما فيما يخص المنهج المتبع الذي اعتمدنا عليه في مذكرتنا فهو المنهج الوصفي التحليلي وذلك لأنه الأنسب لهذه الدراسة ويتمثل أثر هذا المنهج من خلال دراسة الرحلة وتحليلها لاستخراج أهم العناصر والمواضيع المستخدمة في الرحلة، وكذلك حين قمنا بوصف المدونة شكلا ومضمونا.

ومن أجل إنجاز هذا البحث والاجابة على الاشكالية بطريقة منهجية، اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع نذكر منها: الرحلة الورثيلانية " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " والتي هي محور الدراسة. المعاجم اللغوية والمتمثلة في معجم لسان العرب لابن منطور، الكتب منها: أبو القاسم محمد الحنفاوي تعريف الخلف برجال السلف، ومن المجلات العلمية نذكر: حبيب بوزوادة، المضامين العلمية في الرحلات الحجازية الجزائرية–رحلة الورثيلاني انموذجا–.

وقد اعترضتنا مجموعة من الصعوبات والعراقيل خلال عملية البحث والانجاز، نُجملها فيما يلي: الزخم المعرفي للمعلومات خصوصا فيما يتعلق بالجانب النظري، وهذا ما خلق لنا نوع من الضياع والتيه في تدوين المعلومة والإبقاء عليها نهائيا، وعلى النقيض منه صعوبة الحصول على المصادر الأساسية ورقيا وطول المدونة لهذا لجأنا إلى المكتبة الالكترونية بالتحميل على صيغة (PDF).

وفي الختام، لا يسعنا إلا نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من الأستاذة المشرفة الفاضلة على جميل صبرها معنا وقيم نصائحها وتوجيهاتها لنا طيلة فترة البحث، وللوالدين الكريمين على الدعم المعنوي والمادي لنا دائما وأبدا.

مدخل

ضبط المفاهيم والمصطلحات

شكلت الرحلة عاملا هاما عبر مراحل التاريخ في حياة الشعوب عامة وفي حياة العرب والمسلمين خاصة، وازدادت هذه الأهمية قوة خلال أزهى عقود الإسلام. حيث كانت الأغراض من الرحلة مختلفة، فمنهم من كان يتجول عبر المدائن والبلدان في رحلات طويلة وشاقة أغلب الأحيان قاصدا التجارة وجلب السلع، ومنهم من قضى أياما طويلة لزيارة الأماكن المقدسة في أرض الحجاز قصد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام(الحج)، ومنهم من كان يقطع المسافات ويتحمل الصعاب لزيارة حواضر العلم للجلوس إلى العلماء والتروي بسائر العلوم.

1. تعريف الرحلة:

أ: لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور:" ارتَحَل القَومُ عنِ المكَانِ اِرتِحَالاً ورَحَلَ عنِ المكَانِ يَرْحَلُ وَهُوَ رَاحلٌ مِن قَومٍ رُحّل: اِنتَقَلَ...، وَالتّرَحُّلُ والارْتِحالُ: الانتِقَالُ وَهُوَ الرّحلةُ والرُّحلةُ".[1]

وفي المعجم الوسيط:" أرحَلَ فُلانٌ: كثُرت رواحله فهو مُرحِلٌ...، والرُحّال: العرب الذين لا يَستقِرّون في مكان ويَحُلُّنَ بماشيتهم حيث يسقط الغيثُ وَينبتُ المرعَى".[2]

وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس مادة (ر ح ل):" الرّاءُ والحَاءُ واللاّمُ أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ عَلَى مضِي في سَّفرٍ..."[3]

[1] ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد 3، ط1، 2000، مادة (رحل)، ص200.
[2] ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (رحل)، ج1، معجم اللغة العربية، دار الدعوة، 1990، ص300.
[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج2، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991، ص488.

وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط:" الرُّحْلَةُ بالضم والكسر أو بالكسر: الارتِحالُ وبالضم: الوَجْهُ الذي تَقْصِدُهُ والسَّفْرَةُ الواحدة. والرَّحيلُ كَأَميرٍ: اسمُ ارْتِحالِ القومِ ومَنْزِلٌ بين مكةَ والبَصْرَةِ. وراحيلُ: أُمُّ يوسفَ عليه السلامُ. ورِحْلَةُ: هَضْبَةٌ. وأَرْحَلَ: كثُرَتْ رَواحِلُه والبعيرُ: قَوِيَ ظَهْرُه بعد ضَعْفٍ والإبِلُ: سَمِنَتْ بعدَ هُزالٍ فأَطاقَتِ الرِحْلَةَ وفلاناً: أعطاهُ راحِلَةٌ. ورَحَلَ كمَنَع: انْتَقَلَ. ورَحَلْتُه تَرْحيلاً فهو راحِلٌ من رُحَّلٍ كزُكَّعٍ وفلاناً بسَيفِهِ".[1]

يقول الله تعالى:" لإيلاف قريش إيلافهم (01) رحلة الشتاء والصيف(02)".[2]

والرحلة مفرد، جمع رِحْلات (لغير المصدر) ورَحلات (لغير المصدر)، ورِحَلُ (لغير المصدر) رحّال (مفرد)، ج رحّال، ورحّالة، ورُحَّل، ورحّالونَ: صيغة مبالغة من رَحل".[3]

وعرف الدكتور إنعام الحق غازي أدب الرحلة نقلا من إحدى معاجم المصطلحات الأدبية حيث قال: " هو جنس أدبي مهمل وذو تنوع كبير وترجع أصوله إلى العصور القديمة، وقد ساهم فيه كثير من الكتاب الخبراء المشهورين كما أنه وغيرهم من الناس منهم الدبلوماسيين والعلماء والدعاة والأطباء وأصحاب الجيش والبحريين. وهذا الجنس الأدبي يضم الأعمال التي تتصل بالاستكشاف والمغامرات كما أنه يشتمل على سجل الملاحظات التي دونّها الرحالون عن الأراضي الأجنبية[4]"

[1] محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 2005، ص493.

[2] من القرآن الكريم، سورة قريش، الآية 01-02.

[3] أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج1، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008، ص811.

[4] حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة دكتوراه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، ص14.

وترى الموسوعة البريطانية حول الرحلة:" إن في هذا النوع الأدبي النثري غير القصصي، يحتل الرحالة نفسه المكانة أكثر من البلد الذي يزوره، ويضيف الكاتب قائلا: كان الرحالة في العصر القديم مغامرا أو محبًا للفنون أو كان راغبًا في رؤية المناظر الأجنبية ومعرفة العادات الغريبة بالإضافة إلى كونه كاتبًا إبداعيًا".[1]

ب. اصطلاحا:

يعدّ أدب الرحلة من أقدم الفنون الأدبية، التي ازدهرت مع مرور الزمن، وتطورت بتطور الثقافات، والحضارات فأدب الرحلات littérature de voyages هو" مجموعة الآثار الأدبية، تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".

حسب تعريف" مجدي وهبة "و" كامل المهندس"؛ فإن الرحلة تتضمن السرد أو وصف مجرّد للعادات والسلوك والأخلاق وقد يجتزئ الرّحالة مرحلة واحدة يسلط عليها الضوء[2].

يعرف كذلك، أنّه:" أدب يقوم على السّرد القصصي يضمنه الكاتب الرحالة مشاهداته وانطباعاته في البلاد التي يزورها، وهي تقوم على وصف الطبيعة الجغرافية، أو نبذة عن التاريخ، أو عادات الناس، وتقاليدهم وأنماط عيشهم وتفكيرهم، وهذه الأمور تكون في بعض الأحيان مرجعا وثائقيا هاما، وموضوعا للدراسات المقارنة في مختلف المجالات الفكرية الأدبية والحياتية، ومن شروط

[1] حافظ محمد بادشاه، المرجع السابق، ص14.

[2] حافظ محمد بادشاه، المرجع نفسه، ص15.

أدب الرحلات دقة الملاحظة، وتحري الحقيقة، وسهولة الرواية، وحسن التصرف، وهي من الصفات التي تجب أن تتوفّر في الرّحالة".[1]

قالت عواطف محمد يوسف نواب عن أدب الرحلة والرحالة:

" الشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك موطنه، وانتقل إلى مكان آخر وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة".[2]

ترى الدكتورة قدسية قريشي أن الرحلة فن متفرّد بين الفنون النثرية الأخرى، وذلك لأن كل رحالة يصوغ مشاهداته بصياغة تخصّه، ولا نستطيع أن نقول إن كل رحلة توفّر متعة ولكن يمكننا أن نعتبر الرحلات، من حيث العموم، تتسم بصياغة أدبية جذابة".[3]

لأدب الرحلة عناصر مهمة، منها ما يلي:

- الرحلة هي تلك الكتابة الأدبية التي تتميز بالسرد والتي يجمع الرحلة الرحالة مادتها ا خلال مشاهداته في الأراضي الأجنبية.
- تتضمن الرحلة الأحوال والانطباعات والمعلومات التي تتراكم لدى الرحالة خلال سفره.

[1] عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص43.

[2] عواطف محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص43.

[3] عواطف محمد يوسف نواب، المرجع نفسه، ص43.

- كلما تتمتع الرحالة بدقة النظر وعمق الفكر، كثرت تفاصيله، فالناظر العادي يذوب في تحديد المنظر الجغرافي وبيان سماته الخارجية، والحديث عن أهل البلد مركزاً على الإحصائيات وما شابه ذلك من المعلومات.
- تتكون الرحلة من الأفكار والعواطف والآثار السلبية والإيجابية.
- يضم الرحالة عواطفه العميقة إلى الأوضاع الخارجية وبذلك يعبّر عما يدور في قلبه، ومن هنا يتميز أسلوب الرحلة حيث يصبح أدبياً مؤثراً.[1]

2. أنواع الرحلات:

تحتل الرحلة قيمة فنية وجمالية في عالم الأدب ولها مكانة في الحياة الاجتماعية وتتعدد أنواع الرحلة، بتنوع واختلاف كل منها عن الآخر بمزايا وسمات، ترفع من أدب الرحلة علميا ومعرفيا، ونذكر منها ما يلي:[2]

أ. **الرحلة الحقيقية:** وهي مباشرة أي أنّ هذه الرحلة قامت بالفعل من طرف الرحالة، من خلال قيامه بفعل السفر إلى ذلك المكان الذي كتب عنه، وعايشه بتفاصيله، حاضره وماضيه. وهذه الرحلة الحقيقية تختلف دوافعها فنجد مثلا:

- **الدافع الديني:** وهو ما ارتبط بالجانب الروحي فغالبا ما كان القيام بهذا النوع من الرحلات لأداء مناسك الحج تقربا إلى الله تعالى، أو لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، أو للمزارات

[1] حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، المرجع السابق، ص16.

[2] حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991، ص53.

الدينية الأخرى؛ كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء، كما يحصل من خلالها التعرف على أخلاقيات الدين لنشر الإسلام في كل بقاع العالم.

- **طلب العلم:** إذ كان طلب العلم من أقدم الأسباب التي دفعت بالإنسان إلى السفر والارتحال، وهذا راجع إلى إدراكه دور العلم في التقدم والتحرر من العبودية والجهل:" فمن الرحلات العلمية ما كان الدافع إليه حضور الندوات والمؤتمرات والمهرجانات العلمية والأدبية والفنية المشاركة فيها"؛ فقد كان الإنسان يتغرب ويقطع المسافات من أجل زيارة المكتبات وحضور الملتقيات والاستئناس بالمجالس العلمية التي تعدّ زادا معرفيا يستقي منه الرحالة عديد العلوم من مناهل مختلفة يزود القارئ بكم هائل من المعارف التي تضمن له بناء خلفية ثقافية دون التعرف لمشاق الرحلة ومتابعها.

- **الدافع السياحي الثقافي:** ويشمل الرحلات التي يقوم بها الإنسان بغرض الراحة والاستجمام والاستكشاف وارتياد الآفاق البعيدة، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالآثار ...، فغالبا ما كان الإنسان يقوم بمثل هذا النوع من الرحلات قصد زيارة المعالم الأثرية الشهيرة والأماكن التي تضمنت بعدا تاريخيا عريقا، يعبر عن ثقافة أقوام وحضارات لتحمل هذه الرحلات جانبين :[1]

– **أولهما:** الإمتاع من خلال الاستجمام والترفيه.

[1] حسين نصار، المرجع السابق، ص53.

– **ثانيهما:** أخذ خلفية معرفية عن ثقافة الشعوب وما تحمله الأماكن من مدلول وبعد تاريخي. وغيرها من الدوافع سواء أكانت اقتصادية أو تلبية لطلب الحاكم أو الأصدقاء وغيرها...، وكلها تدخل ضمن حيز الرحلات الحقيقية لحدوث فعل السفر حقا.

ج – الرحلة النثرية:

نُميز في هذا العنصر أن أصل أدب الرحلة هو عالم النثر لا عالم الشعر:" فإذا تركنا الشّعر إلى النّثر، أحسسنا أنّنا انتقلنا إلى مجال فسيح لا حدود له، لأن النثر هو الموطن الطبيعي للرّحلة". فكما هو معروف أن معظم الرحلات هي رحلات نثرية لا شعرية.

ومنها التقارير الرّسمية كرحلة "ابن فضلان"، والرّسائل أيضا كرحلة" المختار بن المحسن".[1]

د. الرحلة الخيالية:

وهي الرحلات التي يدونّها أصحابها من وحي خيالهم، أي غير حقيقية ولم يقوموا حقا بفعل السفر، وفي أغلبها تكون ذات أمكنة لا توجد إطلاقا في الواقع ؛ يقوم بها الباحثون عن المدن الفاضلة، أمثال أفلاطون في "الجمهورية"، والفارابي في "المدينة الفاضلة"...، وقريب منها الرحلة إلى الآخرة وفيها يقوم الفلاسفة والمفكرون والأدباء برحلة خيالية خارج عالمنا، ليعبروا بصورة رمزية عما لا يستطيعون التعبير به صراحة على نحو ما فعل ابن الشهيد الأندلسي ... في رسالة "التوابع والزوابع ،" وأبو العلاء المعري في "رسالة الغفران ... "، فهذه الرحلات تكون بمثابة الأمنية التي لم تتحقق في الواقع؛ فيجنحون إلى الخيال ليحققوها في عالمهم الخاص والخيالي وقد تكون ذات أبعاد مختلفة فلسفية

[1] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ص25.

ودينية ...بأسلوب شيق يتخللها حس المغامرة يتم من خلالها الهروب من الواقع إلى مكان أفضل ومثالي، أو محاولة للإجابة على بعض التساؤلات[1].

[1] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص25.

الفصل الأول

الرحلة الورثيلانية " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

المبحث الأول: التعريف بالمؤلِف والمؤلَّف.

1/ تعريف المؤلِف:

2/ تعريف المؤَلَّف:

المبحث الثاني: منهج كتابة الرحلة الورثيلانية وقيمتها العلمية.

1/ منهج الكتابة:

2/ قيمة الرحلة من الناحية العلمية:

تمهيد:

تعد الرحلة جنسا أدبيا موسوعيا، لتفتحها على علوم ومعارف مختلفة، وذلك ما ميز رحلة الشيخ الحسين الورثيلاني الموسومة "بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" التي ضمت بين طياتها زخما من الأصوات والخطابات، فهي أكبر بوتقة تجارب العالم الخارجي المعقد، المثقل بحمولته الانسانية والفكرية المتعددة الثقافات.

تعد رحلة الورثيلاني رحلة حجازية وطبعت في جزأين ابرز فيها أهمية التاريخ على خلاف معاصريه من العلماء وأهل وطنه، ورأى أن علم التاريخ يزيد في فضل الانسان وتضمنت رحلته علم التاريخ وحث فيها عن العلماء ومسار طريقه إلى الحج وقد لقيت رحلته شهرة واسعة منذ اتمامه تدوينها، وسوف نقوم بمعرفة ذلك من خلال المباحث التي سنتطرق إليها.

المبحث الأول: التعريف بالمؤلِف والمؤلَّف.

تعد الرحلة الورثيلانية للرحالة الجزائري الحسين الورثيلاني، وهي رحلة حجازية فيها وصف لرحلته إلى الديار المقدسة وما شهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من العلماء والأعيان وغيرهم ، ومن أجل معرفة ذلك سوف نتطرق إلى نبذة تاريخية عامة عن المؤلف.

المطلب الأول: نبذة تاريخية عن المؤلف

1. تعريف المؤلِف:

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف من أشراف (تافيلالت)، ولد في عرش (بني ورثيلان) قرب بجاية سنة 1125هـ/1713م وفي مسقط رأسه تعلّم على يد والده، فحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلم التي كانت تقام في زاوية أسرته.
كما تلقى العلوم الشرعية واللغوية على يد مشايخ زمانه، كالشيخ يحي حمّودي والشيخ يحي عيسى والشيخ بلقاسم بن علي، وغيرهم ممن رحل إليهم، كالشيخ أحمد زروق الفاي_ دفين مسراته_ الذي زاره أخذ عنه، ومدحه بقصيدة شعريّة.[1]

2. نشأته:

نشأ الورثيلاني نشأة فقيرة أساسها التقشف الصوفي، وفي المدرسة القرآنية التي كان يديرها والده ، حفظ الورثيلاني القرآن الكريم وهو في سن مبكرة، وبعد أن شب ذهب يبحث عن العلم في مختلف الزوايا فتعلم الفقه والنحو، ثم أضاف إلى ذلك علمي التصوف والتوحيد، ولا شك أنه نال حظا من اللغة والأدب والعروض والتاريخ وهكذا أصبح الورثيلاني كجده ووالده، من علماء المنطقة البارزين، ومن الذين يدين لهم الناس بالطاعة والاحترام[2].

[1] أبو القاسم محمد الحنفاوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، ج2، ص111.
[2] أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1998، ص 394.

3. شيوخه وتلامذته:

نجد بعض الكلمات التي تتسم بالآداب النبيلة والأخلاق العالية وحسن التواضع التي استعملها الورثيلاني، مثل: سيدي، الولي، الصالح، وشيخنا القطب الكامل وغيرها، فهي دليل على مدى التقدير والاحترام الذي يكنه لمشايخه رغم كثرتهم، ومن بينهم والده محمد السعيد الذي حفظ القرآن على يده، والشيخ محمد بن يحي الفقيه المفتي، والشيخ ابن عمر التدليسي والعلامة علي بن أحمد صاحب الطريقة الشاذلية، حيث أخذ عنهم الفقه، والنحو والآداب، كما أجازه شيوخ آخرون بالمغرب والمشرق في مختلف العلوم الشرعية مثل: أبي القاسم الربيعي القسنطيني، وعلي الصعيدي والصباغ الاسكندري، وعلي بن أحمد العمروسي، وعلى ابن حجازي الحسني الشافعي ومحمد الحفناوي المصري، وغيرهم من العلماء والفقهاء[1].

وبعد رجوعه من المشرق والاستقرار بقريته ببني ورثيلان قصده الطلاب في مسجده من داخل الجزائر ومن خارجها طلبا للعلم والتفقه في دين الله ومن الطلبة الذين أخذوا العلم عنه، محمد بن الفقيه، ويحي بن حمزة ومحمد السكلاوي الجزائري، وعبد القادر بن أحمد، الجوادي، وغيرهم كثيرة، وقد ذكرهم في عدة مواضع منها قوله: "وكذا أخذ عني الفقيه الفاضل العالم الأديب الحسيب يحي بن حمزة ... فنبهنا عليه لأنه من أجل الفضلاء ... وتلميذي سيدي محمد السكلاوي الجزائري، إذ كان يقرأ علي كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي قراءة تحقيق في أيام الزيارة، وغيرها ... خصوصا تلميذنا سيدي عبد القادر بن أحمد، وكذا غيرهم"، كما يذكر تلميذه محمد الجوادي وهو يتحدث عن شيخه الهاشمي المغربي[2].

---

[1] الورثيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية، الموسومة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، م1، مكتبة الثقافة البدنية، ط1، القاهرة 2006، ص 18.

[2] عبد االرحمان ناتش، الرحلة الورثيلانية (دراسة تحليلية ونقدية)، مجلة الادارة الاسلامية/ المجلس الاسلامي الأعلى، المجلد 13، ع 23، كلية العلوم الاسلامية جامعة الجزائر، ط 1908، ص 115.

4. حياته العلمية:

تردد الحسين الورثلاني كغيره من أطفال القرية على المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده، وحفظ القرآن الكريم، وهو في سن مبكرة وبعد أن شب ذهب يبحث عن العلم في مختلف الزوايا، أين تضلع في الفقه، وعلم التوحيد إلى جانب اهتمامه بالتصوف والتبحر في اللغة العربية وآدابها وتفسير القرآن الكريم، ودراسة التاريخ كما أخذ عن علماء فقها منطقة زواوة.

رحل الورثلاني إلى المشرق العربي عدة مرات، والتقى بعلماء أجلاء وفقهاء، وقد استفاد من علمهم ونهل من دروسهم فأجازوه في مختلف العلوم من فقه وتوحيد، واللغة وآدابها وتصوف، منهم الشيخ ابن الصباغ والشيخ الطحلاوي وأدى فريضة الحج ثلاث مرات الأولى برفقة أبيه، وهو ابن ثمانية عشر سنة، وكان ذلك سنة 1153هـ / 1740م ، والثانية عند بلوغه الواحدة، والأربعين أي في سنة 1166هـ / 1752م ، والثالثة دامت ثلاث سنوات وكانت ما بين 1179هـ-1181هـ 1765م - 1768م، وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره، وهكذا استفاد من حججه المتعددة إلى أرض الحجاز، وذلك من خلال اتصاله بعلماء تونس، ليبيا أو طرابلس كما كانت تسمى، إلى جانب مروره بمصر وصولا إلى مكة المكرمة.[1]

5. مؤلفاته:

وقد ترك الشيخ الحسين الورثيلاني العديد من المؤلفات وهي حكم الضائعة، إن لم تكن قد ضاعت بالفعل، وهي:[2]

1. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ، و تعرف بالرحلة الورثيلانية وهو وصف لرحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179هـ.
2. شرح على منظومة القدسيّة للأخضريّ في التصوف.

[1] عبد االرحمان ناتش، المرجع السابق، ص 119.

[2] أبو القاسم محمد الحنفاوي، المرجع السابق، ص111.

3. حاشية على السّكتاني.

4. حاشية على كتاب المرادي.

5. قصيدة ميمية في مدح النبي صلي الله عليه وسلم في نحو 500 بيت.

6. شرح على خطبة عقيدة السنوسيّ الصغرى.

7. رسالة جوابا على قول بعضهم " خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله".

8. رسالة في حلّ اللغز الذي أرسله أحمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه.[1]

9. وفـاتـه:

توفي الورثيلاني في مسقط رأسه ببجاية سنة 1193هـ/1779م، وقبره هناك مزار مشهور بقرية (آنو) وبها مسجد يسمى باسمه، تقام فيه الصلوات ويقصده طلاب العلم الشرعيّ من أطراف البلاد.[2]

المطلب الثاني: تعريف المؤَلَّف

تتميز رحلة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " على أنّها رحلة عرفت باسم صاحبها الرحلة الورثيلانية نسبة إلى الشيخ الحسين الورثيلاني، وهذا دأب وشأن معظم الرحالين عموما وفي شمال افريقيا خصوصا في ذاك الوقت، فهذا كان أمر مألوف لديهم، فقد كان يغلب على اسم الرحلة، اسم صاحبها فتشتهر به، وهي من أهم الرحلات التي اشتهرت في المغرب العربي وخاصة في الجزائر.

وتضم الرحلة الورثيلانية معلومات قيمة، حيث قال عنها الحسن الورثيلاني هي:" رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنّما تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها

[1] الورثيلاني الحسين بن محمد، المرجع السابق، ص 17.

[2] نادية مفاتيح، نادية مفاتيح، آليات الكتابة في الرحلة الورثيلانية مقاربة سيمائية، رسالة ماجيستر، جامعة ورقلة، 2017، ص29.

بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من تصوف".[1]

وتقوم الرحلة على وصف دقيق ومحدد، يصف لنا الورثيلاني فيه الطريق الذي يسلكه لحجاج إلى مكة، ويحدثنا عن معالم الحج وتأدية مناسكه، حيث انطلق في رحلته من بجاية بالجزائر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وكانت خارطة الطريق كالتالي:

الجزائر ⟵ تونس ⟵ ليبيا ⟵ مصر ⟵ مكة المكرمة

وشملت رحلته بزيارة مدن كثيرة منها بجاية وهي منطقة انطلاق الرحلة والمرور بالزاب، دلس، سيدي خالد، المدية، بونة (عنابة)، قسنطينة، قابس، منستير، تبرسق، القيروان، طرابلس، القيروان، طرابلس، بنغازي، القاهرة، وغيرها وصولا إلى مكة.

وقد كان الرحالة يقدم تقريرا عن كل مدينة يمر بها ويقدم معلومات غنية تشمل:" ذكر المدن والقرى وبيان أوصافها وذكر الفلوات والصحاري والأنهار والعيون وحسن بناء المدن والأسوار والحوانيت والأسواق والأزقة والمساجد وإتقانها والصوامع وأوصاف ما ذكر وملاقاة الرفاق والرجال من عامة المؤمنين وبيع الحوائج وشرائها".[2]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2008، ص13.

[2] الموقع الالكتروني: www.elmarefa.com

وعادة ما تكون رجلته إلى المدن الأخرى إما لزيارة قبور الأولياء الصالحين أو الإصلاح بين الناس والقبائل، والرحلة هي إحدى الوثائق الهامة التي يوثق فيها الكاتب سيرته الذاتية وكل من تعرف عليه من الشيوخ والعلماء، وعلوم الفقه والتاريخ والأدب.

وتدعو الرحلة في مواضيعها إلى ضرورة التحلي بمجموعة من القيم الدينية والأخلاق الفاضلة منها الصلح والتسامح بين الناس فيقول:" فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين". والابتعاد عن الفتن وشهادة الزور والظلم وعدم انتهاك حقوق الإنسان إضافة إلى التقرب من الله والعمل بسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والامتثال لأوامرها واجتناب نواهيها.

ويخلص الرحالة في الأخير، ليوضح لنا أن معظم رحلاته وسفراته كانت من أجل الإصلاح بين الناس ونشر التسامح بينهم، وكذا الدعوة إلى الله تعالى والنهي عن المحرمات كما هو الشأن بالنسبة للاختلاط بالنساء حيث ينهى الرحالة الرجال الذين يختلطون بالنساء الأجانب سواء كان من أجل العلم أو غير ذلك، حتى لو كنّا صالحات قانتات فحرام الاختلاط بالنساء وقد استشهد في ذلك بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم:" ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وقال أيضا باعدوا بين أنفاس الرجال وأنفاس النساء".

وتعتبر رحلة الورثيلاني من أهم الرحلات الحجازية في التراث الجزائري وتأتي أهميته من عدّة نواح:

أ. **الناحية الأولى:** هي رحلة مكتملة بنائيا وسردياً وتاريخياً وصلتنا كما كتبها مؤلفها بخلاف رحلة ابن عمّار مثلاً التي ضاع قسمٌ كبيرٌ منها، ولذلك فإنّها تمكننا من قراءتها براحة كبيرة وتتيح للباحثين والنقاد مادّة معرفية ثريّة.

ب. **الناحية الثانية:** طول الرّحلة فهي تقع في جزأين اثنين قدّم فيها كلّ ما كان يريد أن يقوله في مختلف أبواب العلم والمعرفة.[1]

ت. **الناحية الثالثة:** الطابع التوثيقي فالمؤلّف كان يوثق مختلف التفاصيل العلمية والجغرافية بما يشبه تقنية الربورتاج (Reportage) المستخدمة في الإعلام الحديث" أي نوع من التقرير الصحفي المزدوج بالنص التاريخي والأنثروبولوجي والرّوائي والمذكراتي".

ث. **الناحية الرابعة:** الثراء المعرفي، فالرحلة الورثيلانية تعكس ثقافة العصر العثماني ومعارفه السّائدة آنذاك، في مجالات الشريعة والتصوّف والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق وغيرها، إنّها وثيقة مهمّة عن التاريخ الثقافي للجزائر خلال تلك الحقبة.

إن هذه النواحي تعتبر مؤهلات مهمّة تجعل من رحلة الورثيلاني جديرة بالبحث والتحليل، فهي وثيقة ثقيلة تاريخيا، دسمةٌ معرفيا، يقول مختار حبار في وصفها:" هي الرّحلة التي أملى فيها الورثيلاني مشاهداته وملاحظاته ولقاءاته التي دوّنها أثناء رحلاته الداخلية في أطراف البلاد

[1]: المرجع السابق، elmarefa.com

والارجية إلى الحجاز والقاهرة، والبلاد التي مرّ بها كتونس وطرابلس الغرب وغيرهما، فجاءت الرّحلة بذلك طافحة بطرائف الأخبار، ولطائف الآداب، وتراجم مشاهير الرّجال والأقطاب".

المبحث الثاني: منهج كتابة الرحلة الورثيلانية وقيمتها العلمية.

1. منهج الكتابة:

تعتبر الرحلة الورثيلانية من أبرز الرحلات التي شهدتها الجزائر في العهد العثماني خلال القرن الثاني عشر هجري (ق18م) حيث جمعت بين التحصيل العلمي وتأدية مناسك الحج، علاوة على أنّها مصدر من مصادر التاريخ الجزائري، فقد أظهر ميله نحو علم التاريخ، وأكدّ على مكانته بين العلوم الأخرى، فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له بل يلجأ في بعض الأحيان تأكيدا لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرحالة السابقين: أمثال أبي القاسم العياشي، وابن ناصر الدرعي، والتيجاني وغيرهم كما أنّه لا يتردد في أن يقتبس من فقات بعض كتب المسالك والبلدان والتراجم والتاريخ.[1]

إن منهج الكتابة عند الورثيلاني يثبت أن التاريخ لديه ليس مجرد نقل للأحداث السياسية بل هو تصوير للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبتعدد أنماط الحياة وهو في ذلك يتابع المشاهد هند استقباله بالمدن التي حل بها، وعن عادات وتقاليد السكان.[2]

[1] عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ص88.

[2] عبد الرحيم مودن، المرجع السابق، ص88.

ويركز على الوصف الجغرافي للأماكن التي زارها وكل ذلك بأخلاق عالية وموضوعية في وصف الأحداث والمواقف التي مرّ بها وصادفته، كما أنّه يزاوج بين التاريخ الهجري والميلادي، وهي إشارات ثابتة بالأيام والشهور والسنة لبداية الرحلة، والمدة التي استغرقها ومدو مناسك الحج.

ويظهر منهج الورثيلاني في طريقة التدوين التي لا تختلف عن طريقة تدوين كتب التراجم والمناقب وغيرها فهو يذكر عدداً كبيرا من العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في تونس ومصر والحجاز وحتى في الجزائر من الذين تتلمذ على عليهم أو الذين درسهم.

ورغم التزام الورثيلاني بفنيات الكتابة الأدبية في تحرير رحلته إلا أنّه لم يهمل قواعد الكتابة العلمية التي يطلبها هذا النوع من المؤلّفات، فالكاتب عالم ديني له وزنه وأهميته ومؤرخ ومهتم بالأنساب كما يزهر من رحلته، وهذه السّمات كلّها تستدعي أسلوبا خاصا في الكتابة من أجل تثبيت الحقائق وغربلتها وعرضها.

ويمكننا تحديد ملامح المنهج العلمي الذي اتبعه الورثيلاني في رحلته على النحو التالي:[1]

1. توثيق المعلومات ونسبتها إلى مصادرها، فالورثيلاني استعان بالعديد من الرّحلات السابقة في تحديد الأماكن، والمسارات ووصف الأبنية والمساجد كرحلة العياشي والدّرعي ومسالك البكري وغيرها، كما كان يحيل على المصادر التاريخية لطمأنة القارئ، كقوله في مقدمة الرّحلة:" وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله وعليه اعتمدنا سيدي أحمد بن محمد ناصر الدرعي

[1] عبد الرحمان ناتش، المرجع السابق، ص120.

الجعفري...وأيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرها".[1]

1. الاهتمام بالتاريخ المروي، فالورثيلاني كثير النقل عن المصادر المختلفة ولا يقوم-في الغالب- بتحليل المرويات ونقدها، بسبب غلبة النزعة الصوفية على شخصيته، فهو يسلّم ويستسلم للمرويّات ولا يتعرض لها بالنّقد والتمحيص، حتى لو كانت مرفوضة عقلا وواقعاً، مثل إيراده.

2. إصدار الأحكام القيمية، فعلى قلّة الآراء الشخصية في الرّحلة الورثيلانية: إلاّ أن المؤلف كان يبدي رأيه أحياناً في بعض المؤلفات أو الشخصيات، فيثني عليها للتأكيد على أهميتها ومركزتيها في الرّحلة.

3. اعتماد الشّهادة الشخصيّة، فالورثيلاني كان يستعرض الكثير من الأحداث والشخصيات والمحطّات المهمّة، باعتباره شاهداً عليها، في موطنه بني ورثيلان أو في البلدان التي زارها.

4. استخدام اللغة العلمية التقليدية فمن المعلوم أنّ اللغة العلمية تختلف عن اللغة العادية من خلال اعتماد اللغة العلمية على المصطلحات المضبوطة والصياغة الدقيقة، غير لغة الورثيلاني جاءت تقليدية، تبعا للعصر الذي عاش فيه المؤلّف، من خلال الإكثار من المفردات التالية (اللطيفة، والتتمّة، والانعطاف، والغريبة، والنكتة) وهذه كلّها بمثابة المؤشرات الدّالة المعبّرة عن حرص المؤلّف على وضع

[1] عبد الرحمان ناتش، المرجع السابق، ص120،122.

القارئ ضمن إطار الخطة المرسومة سلفا. وتوجيهه وفق أهداف الرّحلة وغاياتها، أمّا في حال إنهاء فكرة ما فإنّ الورثيلاني يستخدم (وبالجملة، وحاصله) إيذانا للقارئ بحسن الختام.

5. احترام المسار الكرونولوجي للرّحلة، فمسار الرّحلة كان ينمو تبعاً لزمن الترحّل والانتقال وكلّ الأفكار كانت تتطوّر ضمن هذا النسق.[1]

2/ قيمة الرحلة من الناحية العلمية:

يكتسي كناب الرحلة الورثيلانية أهمية كبيرة نظراً لقيمة المعلومات التي أتى بها فهو يقدم صورة شبه مكتملة عن الأوضاع الاقتصادية، الاجتماعية والدينية التي ميزت عصره في الجزائر، وخاصة موطنه وما جاوره، فضلا عن أخبار تتعلق بتاريخ المغرب العربي وبعض بلدان المشرق التي زارها.

فالرحلة زاخرة بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد والفقيه وعالم الاجتماع والرحلة الورثيلانية سجل حافل بأخبار الناس، وعاداتهم وتقاليدهم بدءا من الجزائر حتى الحجاز، حيث انصب الورثيلاني على إظهار الجوانب الحسنة للمجتمع في الحجاز.

فذكر مأكلهم ومشربهم وبارك عمرانهم ومدح العلماء ورجال الدين وفي مصر تعجب من المساجد وخاصة الأزهر الشريف، ورخاء في المعيشة مع ذكر البيوت والعمران التي كانت في نظره على قمة من الحسن والجمال.

[1] عبد الرحمان ناتش، المرجع السابق، ص 122.

يمكن الاستفادة من الرحلة الورثيلانية من المادة التاريخية الغزيرة في إعادة الاعتبار للتاريخ لأنه يعطينا تغطية شاملة للبلدان، والقرى والبيوت التي رآها في طريقه وتظهر القيمة التاريخية والعلمية للرحلة الورثيلانية فيما يلي:[1]

- التزامه بالصدق فيما أورده من معلومات عن طريق المشاهدة المباشرة أو النقل من المصادر التي سبقته فيقول أخبرني أو شاهدت، بحيث يعبّر عن رايه مبيّنا للحق.
- عرض الوقائع كما هي دون تحريف أو تزييف مثلا: ينقل حرفيا عن الشيخ الدرعي مما دفعه إلى انتقاد الحكام، والولاة لانعدام الأمن وسوء الأخلاق.
- تحري الحقيقة بالعودة إلى المصادر الأولى أمثال العياشي والبكري.
- تحلي الورثيلاني بالتقوى والزهد والتصوف، ويتجلى في ذكر العلماء والفقهاء وتتبع آثارهم.

[1] أبو قاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص139.

تعتبر رحلة الورثيلاني " نزهة الأنظار "من أهم الرحلات المغاربية فهي مصدر أساس للمؤرخين والباحثين من حيث محتواها ومن حيث المرحلة التاريخية التي أرخت لها، فقد دونت فيها الشخصيات التي صادفها المؤلف ووصف الأماكن وصفا دقيقا كما سرد مختلف الأحداث التاريخية التي لقيها، وترجم لبعض الصالحين، وتعد من بين أكبر الأعمال التي قام بها الورثيلاني في عصره، فهو يستوعب أحداث ثلاث حجج أداها المؤلف في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري والنصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، كما يدون كل ملاحظاته وما شاهده أو سمعه في أوراق وكتيبات، وبعد رجوعه إلى الجزائر رتبها ونظمها وكتبها، فتحولت رحلته الحجازية العلمية إلى كتاب يضم فيها المؤلف الوصف والتقرير والمشاهدة لرحلة هي من أكبر الرحلات المشرقية التي جمعت في كتاب واحد.

وتعد الرحلة العلمية مصدرا تاريخيا مهما من مصادر تاريخ الجزائر خاصة خلال العهد العثماني، وهذا من خلال أخذها بالوصف الدقيق لأحوال الجزائر السياسية، الاقتصادية، العلمية والثقافية وبالتالي فهي كنز نفيس من المعلومات المهمة والمفيدة ومصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لفهم الواقع السياسي الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي بالنسبة للجزائر خصوصا والعالم العربي على وجه العموم.

الفصل الثاني

مضامين الرحلة الورثيلانية

المبحث الأول: المضمون العلمي في رحلة الورثيلاني.

أوّلا: المضمون التاريخي

المبحث الثاني: المضمون الديني

1. الانضباط القيمي في تهذيب النفس والسلوك
2. تمتين الروابط القيمية الاجتماعية
3. إصلاح ذات البين
4. الاهتمام بحال المرأة المسلمة
5. فكرة التسليم لله

تمهيد:

لقد أجريت دراسات عدة عن الرحلة في شكل كتب أو رسائل جامعية، كما عقد مؤخرا مؤتمر دولي خاص بالرحلة الورثيلانية شارك فيه كتاب من مختلف أنحاء العالم ، غير أن هذه الدراسات ركزت على الأبعاد الوصفية و التاريخية مما يجعل دراستنا تختلف عن سابقاتها في كونها تبحث بالأساس في التواصل القيمي بتوظيف أدوات علم الاتصال من جهة وباستظهار تلك الجوانب العملية، إن على المستوى المحلي أو الترابط القيمي بين المجتمعات التي شملتها الرحلة من بجاية، المعروفة في العصور الحديثة بعاصمة دولة الحماديين، إلى مكة المكرمة مرورا بتونس وليبيا ومصر. و قد كتب الورثيلاني مؤلفات أخرى ورد ذكرها في ترجمة منتصف الرحلة.

إن هذه الرحلة تدل على أننا لسنا أمام كاتب مرموق ذو معرفة دينية "متواضعة" يحسن تدوين تفاصيل وقع الحياة وأبعاد الأحداث التي عايشها في هذه الرحلة "المشوقة" فحسب، ولكن أمام شخصية ثقافية بارزة، بل ومن أشهر علماء زمانه إن كان ذلك في الفقه أو "التصوف" أو علم الكلام أو حتى الفلسفة إضافة إلى أسلوبه الذي يجمع بين الأسلوب الروائي والنثر والسجع والشعر والحكمة "البالغة." وما يدل على ذلك الترحاب "الكبير" الذي يلقاه في الكثير من المحطات الرئيسة في سفره ذهابا و إيابا في "زمورة" أو طرابلس أو القاهرة أو مكة أو قسنطينة، الخ.

المبحث الأول: المضمون العلمي في رحلة الورثيلاني

على الرغم من أنّ رحلة الورثيلاني هي لغايات دينية تتمثل في الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة البقاع المقدسة، إلاّ أنّها احتوت على العديد من المباحث العلمية والنقاشات المعرفية التي تعكس ثقافة العصر العثماني، وتعطي صورة عن مثقفي تلك المرحلة، مثلما يظهر في المضامين التالية:

أوّلا: المضمون التاريخي:

تتضمن الرحلة الورثيلانية الكثير من المحطات التاريخية التي عايشها المؤلف أو السابقة على عصر التأليف فقد تحدث عن تاريخ بجاية وقسنطينة وبسكرة ومسراته ومكة والمدينة وبغداد وغيرها، غير انّه أفاض الحديث في تاريخ مصر الذي استغرق حوالي (62) صفحة معتمدا على حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي، فتحدث عن الإسكندرية وأول من بناها وعن فتح مصر وعجائبها ومزاراتها وعن ملوك مصر من عهد نوح ومن دخلها من الأنبياء، كما استطرد متحدثا عن تاريخ الخلفاء من ابي بكر الصديق إلى بني أميّة وبني العباس، ثمّ رجع إلى ملوك مصر من الفاطميين، متوقفا عند نهر النيل وتاريخه وما جاء فيه من الأخبار.[1]

ومسار رحلة أو خارطة الطريق التي اعتمدها الورثيلاني، هي كالتالي:

المحطات الرئيسة في الرحلة: بسكرة: الجزائر، طرابلس: ليبيا، العراق: مصر، مكة المكرمة والمدينة المشرفة.

[1] حبيب بوزوادة، المضامين العلمية في الرحلات الحجازية الجزائرية-رحلة الورثيلاني انموذجا-، المجلد4، عدد خاص، مجلة آفاق فكرية، 2018، ص65.

تحتوي الرحلة على تفاصيل دقيقة عن قرى وبلدات متعددة في مسار الرحلة وعلق عليها إن بشكل جزئي أو مفصل، غير أن المحطات التالية كانت أبرزها إذ أقام بها مدة أكبر ودون ملاحظاته عن علمائها ومآثرها التاريخية بأسلوب مشوق وبمثابة نزهة للأنظار كما جاء في عنوان الرحلة.

1. بسكرة، الجزائر:

تعتبر بسكرة أكبر محطة توقف عندها الورثيلاني، وتكمن أهميتها في ثلاثة أبعاد حسبما نقرأه بشكل ضمني في الرحلة: [1]

أ-أنها موطن صاحب الطريقة الشاذلية التي يبدو أن الورثيلاني تأثر بها أو ينتمي إليها وقد التقي الورثيلاني بعلماء بسكرة أمثال الفقيه سيدي محمد بن الجودي وسيدي محمد الشريف والقاضي والمفتي ويذكر الورثيلاني أنه زار قبر أحد الأولياء بالبارزين الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري الذي ذاع صيته في مصر والمغرب وخاصة مؤلفه "السلم في النطق" وقصائد "القدسية والسراج والدرة البيضاء.

ب-تميز المدينة بمساجدها "العظيمة" التي لا تجد لها مثيلا إلا في مدن كبرى مثل القاهرة، ومن ذلك الجامع الأعظم ويشير في سياق آخر، أن حسن بسكرة في مسجدها فقط.

ويصف الورثيلاني المدينة وأهلها بقوله "وبسكرة فيها علم كثير وأهلها على مذهب أهل المدينة، ولها من الأبواب باب المقبرة وباب الحمام وباب ثالث يسكنه المولودون، وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بئر لا ينزف وداخل المدينة جنات يدخل إليها الماء من النهر وبها جبل ملح

[1] الموقع الالكتروني: www.elmarefa.com

يقطع منه صخور جليلة..."[1] ويبدو أن المدينة كانت تحت حكم الأتراك وإن بشكل رمزي إذ يذكر أن "فيها برجان للترك عامران أحدهما بالبلد والآخر خارجها".

ج-وجود قبر أحد الصحابة عقبة بن نافع الذي يقع في منطقة سيدي عقبة بالقرب من المدينة. وقد اتخذ الورثيلاني من المكان مناسبة للحديث بشكل مفصل على الفتح الذي قاده هذا الصحابي الجليل ونزاعه مع أحد زعماء البربر كسيلة، هذا النزاع الذي أدى إلى استشهاد الصحابي في معركة بين الجانبين بالمنطقة.[2]

2. بلاد الجريد وقابس (تونس):

لم تمر الرحلة بالأماكن الأثرية التراثية الأساسية في تونس، إذ اتجهت الرحلة جنوبا بعد الخروج من منطقة تبسة في اتجاه قابس ومنها وبمحاذاة بحر الروم (الأبيض المتوسط) إلى شمال ليبيا في اتجاه طرابلس. وقد أسهب الورثيلاني في الحديث عن مدينة القيروان عندما توقف سابقا بمنطقة سيدي عقبة، شمال بسكرة، حيث ذكر تاريخ النزاع على المدينة أثناء الفتح الإسلامي والاستيلاء عليها من طرف كسيلة ردحا من الزمن ثم انسحابه منها مرة أخرى، الخ. وقد وجد الورثيلاني المنطقة الممتدة من توزر إلى قابس عامرة تجمع بين طيبة أهلها والتفكك الاجتماعي من جراء غياب الوازع الديني والاختلاط الشائع بين الرجال والنساء والظلم الناتج عن الخراج الذي يفرضه حكم الأتراك ووالي تونس على المنطقة.

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ص122.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 124-136.

ولم يذكر الورثيلاني الكثير من المعالم الدينية باستثناء قبر صحابي باسم أبولبابة المذكور في بعض المصادر التاريخية مثل "اختصار معالم الإيمان وروضات في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان" لابن ناجي. ويضيف أن أمير تونس حمودة عليه (أي القبر) "بنيانا عظيما" وبجانبه "مدرسة بناها محمد باي في غاية الجودة والإتقان والحسن... وجعل لهذه المدرسة أحباسا ورتب فيها عشرين طالبا يعطي كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر واستأجر فقيها يعلمهم ويصلي الصلوات الخمس.".[1]

3. طرابلس، ليبيا

يذكر الورثيلاني أنه لقي ترحابا كبيرا في منطقة طرابلس، و قد مكث بها حوالي عشرة أيام التقي فيها بعلماء المنطقة ومن ضمنهم من تعرف عليهم في حجة سابقة. يقول في وصف أهل المدينة وضواحيها "وأما أهل الخير و الصلاح فلا أستطيع عدهم لكثرتهم جدا لاسيما الساكنون بخارج المدينة وأما في المدينة (ويشير إلى عدد من العلماء أمثال الشيخ المفتي سيدي محمد بن مقيل و الفقيه المدرس سيدي عبد العزيز و أولاده) فأخذوا من قلبي مجامعه و لنا ما لهم و علينا ما عليهم حبا في الله ... فقد أجادوا في إحساننا كسوة و إطعاما و شراء ما نحتاجه..."[2]

ويعتمد الورثيلاني على مصادر تاريخية عدة في وصف مدينة طرابلس فيشير إلى ما ورد عن الشيخ محمد بن علي، شارح الشقراطسية، ونقلا عن البكري، من أن "طرابلس بالعجمية ثلاث مدن قال وعلى مدينة طرابلس سور ضخم جليل البناء وهو على شاطئ البحر وبها أسواق حافلة وحمامات

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص 163.
[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 173-174.

كثيرة فاضلة وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ومرساها مأمون من أكثر الرياح، ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات وبها بساتين جليلة في شرقيها ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير."[1]

ثم يسرد تاريخ طرابلس منذ دخل عمرو بن العاص المدينة سنة ثلاث وعشرين (هجري) وخروج الروم منها إثر ذلك ثم مجيء الترك والصراع مع النصاري. وقد أسهب الورثيلاني في ذكر علماء طرابلس ومآثرهم بل ومدارسهم الفقهية المتعددة، ثم واصل رحلته في اتجاه البلدات الصغيرة المحاذية للبحر في اتجاه مصر بعد أن تم نقل حوالي ثلاثمائة من أفراد الركب الذين أجهدهم السفر عن طريق الباخرة التي استغرقت اثني عشر يوما إلى الإسكندرية.

4. مصر:

دخل الورثيلاني أرض مصر من الشمال الغربي بمحاذاة بحر الروم (المتوسط) بدءا بما يسميه وادي الرهبان[2] ثم كرداسة (أو المنصورة) ثم "كفر حمام" فالبولاق. ويبدو أن الرحالة على اطلاع واسع بتاريخ البلد إذ وبالإضافة إلى مشاهداته الميدانية يستند إلى مصادر تاريخية عدة مثل ابن خلدون وكتاب "طبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني،".[3]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص182.

[2] يصفه أنه "واد عظيم طويل وفيه قصور للعباد من النصارى ينعزلون هناك لعبادة الأصنام يخرجون من مصر إليه وإن مصر فيها طوائف من النصارى يعطون الجزية للسلطان. المرجع نفسه، ص 292.

[3] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 294.

ويذكر الورثيلاني بأسلوبه البين أن المرء يجد في مصر أي شيء يبحث عنه وأزيد من ذلك بكثير وينسب ذلك إلى " كثرة الناس" ربما لأنه قادم من منطقة جبلية متفرقة المساكن والقرى ولا تعرف معنى للاكتظاظ. وفي نظره، فإن مصر " أم البلاد شرقا وغربا لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها ومن خير أوشر"

ويسرد في ذلك رواية من أن جماعة من الوافدين إلى مصر سكنوا في "بعض الوكائل" وكان منهم التاجر والفقيه والطالب والفقير وأهل المجون والجنون وغير ذلك. فإذا أصبحوا تفرقوا في حاجاتهم، وإذا جن الليل، حكي كل واحد حكايته فبقول التاجر "ما رأيت مثل هذا البلد في التجارة فأهله كلهم تجار ويقول كل واحد مثل ذلك. وما ذلك في نظر الورثيلاني "إلا لكثرة الناس فيها، فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن أن غالب أهل البلد كذلك."[1] ويضيف في سياق آخر، "وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل غريبة".[2]

وقد استوقف الرحالة كثيرا ظاهرة الظلم المسلط على المزارعين الذين "لا مشتكى لهم إلا الله" ويعطي ذلك تفسيرا تاريخيا على النحو التالي:

وقد ذكر ابن خلدون أن مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار والأخرى في غاية الذل والاستحقار. وقد صدقوا لقد كان بها فرعون وملاؤه، فلم ينته دون أن قال أنا ربكم الأعلى، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم... ثم لم تزل كذلك. فباشواتها وسناجقها وولاتها وحكامها بل وسائر جندها وعسكرها فيما

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص 295.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 317.

يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا وأصمه وختم على سمعه وبصره لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا أينما تبدو لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها...وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار...[1]

ويبدو أن للورثيلاني معرفة حميمة مع العديد من علماء مصر، ويذكر من ذلك الشيخ عبد الرؤوف، نقيب كسوة الكعبة المشرفة، الذي استضافه و "بالغ في إكرامه" وحدثه عن الكسوة من أنها "تقام كل سنة باثنين وعشرين ألف كيس والكيس خمسمائة غرش والمحمل سبعة أكياس من أحباسها وربما يزيد".[2] ويصف الورثيلاني الاحتفال الخاص بإعداد الكسوة وصفا دقيقا يدل على أهمية الحدث وقداسته بوصفه حدثا وطنيا لا مثيل له في مصر آنذاك، ويشمل الاحتفال الخروج الأول الخاص بالإعداد والثاني الخاص بالإتمام والاستعداد للسفر إلى مكة المكرمة.

ومن التفاصيل التاريخية المعبرة والمؤثرة، نذكر:[3]

" والكسوة المذكورة، إذا كان النصف من شوال... يخرج المحمل الخروج الأول فيؤتى بها من دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج السناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي كل واحد مع أتباعه، ولكل واحد مجلس معلوم في السجافة المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط و عن يمينه مجلس القاضي، و كلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له و قربهم من الباشا بحسب قربهم من مناصبهم، فإذا تكاملوا كلهم و أخذوا مجالسهم و صفت الخيل عن يمينهم

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني المرجع السابق، ص295

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص313.

[3] المرجع نفسه نفسه، ص314.

صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا وهو ميدان كبير يسع من الخيل الألف، و آخر من يخرج الباشا فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضه أثر بعض على ترتيب معلوم وقانون مضبوط، وآخر من يخرج معه طائفة من الشاوشية على أرجلهم عليهم جلود النمر وعلى رؤوسهم طراطير طويلة من اللمط لها ذيول معكوفة بين أكتافهم وعلى جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب تلمع لمعانا، فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بأثرهم راكبا فإذا وصل إلى السجافة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس، و كذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده، فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذي يحمل المحمل وعليه المحمل وهو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن وشبابك ملونة بأنواع الأصباغ و عليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب، ورقبة الجمل و رأسه و سائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم وعليه رسن محلي بمثل ذلك، والجمل في غاية ما يكون من السمن و عظم الجثة وحسن الخلقة مخضوب جلده بالحناء... ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعا قطعا ... و يؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد و تسمى بالبرقع كلها مخصوبة بالذهب... بصنعة فائقة و كتابة رائقة، ثم يمر بكل ذلك بين يدي الباشا و الأمراء و يقومون لها إذا مرت تعظيما لها... ثم يذهب بها كذلك حملتها و يمرون بها في وسط السوق و الناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني فتنشر في صحن المسجد و تخاط هناك...[1]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص314-315

أما الخروج الثاني فيصفه، كما جاء في رحلة العياشي، بأنه يوم الزينة حيث " يجتمع له الناس من أطراف البلد و يؤتى بكسوة البيت الشريفة المعظمة المنيفة من موضع خياطتها ... و يجتمع الأمراء والسناجق والجند على الهيئة المتقدمة في الخروج الأول... ثم يمر بالمحمل و سائر الإبل و العسكر وسط المدينة و الناس مشرفون من الديار و المساجد التي تلي الشوارع و يتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم و أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرى من أول السنة ولا يسكنها مكتريها ولا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصدا للتفرج و فيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره"، ويذكر الورثيلاني أن "هذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه".[1]

وقد زار الورثيلاني العديد من العلماء والشيوخ بالأزهر الشريف ومنهم العلماء من وطنه الذين كانوا بالأزهر في هذه الفترة من رحلته مثل «إمام الطريقة والسالكين، الجامع بين الحقيقة والشريعة سيدي محمد الحفناوي، والشيخ الصالح، والبدر الواضح، نخبة العارفين، ودرة الموحدين الشيخ الجوهر. ويضيف " وزرت أيضا من بالأزهر من العلماء والطلبة وغيرهم واجتمعت مع أبي الحسن شيخ رواق المغاربة...".[2] و القائمة طويلة من أسماء علماء مصر الذين زارهم أو ناقشهم في مسائل فقهية أو تفسيرية أو منطقية ومنهم من " إليه النظر في وقتنا هذا في الجامع الأزهر بل و إليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب و قد بلغ صيته و علمه مشارق الأرض و مغاربها شيخنا سيدي علي الصعيدي..".

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني ، المرجع السابق، ص317.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص338.

ويتضح أن علاقة الورثيلاني بهؤلاء العلماء لم تكن شكلية أو ظرفية بل عميقة و ذات فائدة مشتركة فقد كان يعرض عليهم بعض مؤلفاته مثل شرحه على "خطبة شرح الصغرى" ويحصل منهم ما يسمى آنذاك بالإجازة (أي ربما بالتعبير المعاصر الديبلوم) فيشير إليه بصريح العبارة أنه (إشارة إلى العديد من العلماء مثل الشيخ الشاذلي، والشيخ خليل المغربي والشيخ سيدي على الصعيدي، ثم و في المدينة المنورة خطيب الحرم الشيخ إسماعيل[1]) " أجازني بخط يده في سائر العلوم نفعنا الله به".[2] كما زار عدّة معالم تراثية في مصر مثل قبر الإمام الشافعي.

وما ينبغي التنبيه إليه أيضا أن انشغال الورثيلاني ارتبط بالمعالم الإسلامية المقربة إلى الله ورسوله بالأساس فلم يأت مثلا ذكر "الأهرام" في رحلته.

ولم تخل إقامة الورثيلاني ببولاق من متاعب من مثل ما كان يقوم به بعض النصابين في أخذ أموال الحجاج بغير حق، غير أن الورثيلاني أكثر ما يكون موضوعيا في وصف الحدث فينسب الظلم إلى الطرفين مثلما ما يذكر في أحد هذه الحالات: "غير أن ما منعني من الإقامة بمصر (إشارة إلى أنه كان يريد المكوث بالأزهر الشريف أكثر) لما كان من الهرج والفتنة والنزاع بين الحجاج – والشيال لأن من دخل بولاق من الحجاج ربطوه وحبسوه ومن دخل منهم الركب ربطه الحجاج – فوقع هول عظيم وجميع الفضلاء يجري بين الجميع بالصلح حتى خفنا على أنفسنا من كثرة الظلم الواقع من الجانبين غير أن الحجاج مظلومون بالنسبة للمال إذ أقرضوهم في الطريق فأكلوهم وأرادوا الزيادة منهم،

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص584.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص341

وأما الحجاج فقد ظلموهم بالضرب في الطريق و الشتم وكل عمل قدروا عليه فانتقم الله من الجميع رزق الله الكل التوبة و الندم على ما صدر من الجميع بمنه و كرمه".[1]

وقد خرج الركب مع خروج الركب المصري في اتجاه سيناء شمالا في اتجاه العريش ثم انحرف جنوبا إلى أرض "التيه" وصولا إلى العقبة فمدين فالحجاز مثلما أسلفنا في مخطط الرحلة.

5. البيت الحرام، مكة المكرمة والمدينة المشرفة:

يصل زخم الرحلة إلى أقصاه مع الوصول إلى مكة، وبرؤيتها "يزول التعب والنصب،" ولم يعد المرء يكترث بما أصابه "من الهم والمشقة." ويصف الورثيلاني هذه اللحظة: "فدخلنا مكة ... وكأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا الله، بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكونها."[2]

وعن مناسك الحج والجو السائد في مضمون الرحلة، يقول: " نزلنا بمنى قرب مسجد ... وهذا المسجد الدعاء فيه مقبول مستجاب وورد فيه فضل عظيم...فصلينا فيه المغرب والعشاء، وإن بعض الأركاب من المصري والشامي والعراقي والمغربي ... ارتحلوا إلى عرفة... فارتحلنا. فلما خرجنا من مزدلفة ووصلنا بينها وبين عرفة، طلع الفجر أي بين العلمين فوجدنا أكثر الأركاب هناك نائمين... وبطل ظننا أنه ارتحلوا ليدركوا الوقوف ليلا في عرفة، فوصلنا ضحى مسجد نمرة الذي ينبغي الجمع بين الظهرين فيه بالقصر... فامتلأ المسجد ناسا وكذا مراحه و اشتد فيه الحر بحيث لا يقدر أحدا أن

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص340.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص452.

يضع رجله على الأرض...فلما حان وقت الظهر صلينا في زحمة عظيمة يكاد الإنسان أن يموت من شدة الحر و أن العرق علينا يسيل فلا يجد أحدا إلا كاد أن تزهق روحه فصلينا خلف واحد من الأئمة و نوينا القصر وصلى هو بالإتمام ...و لما فرغ أعاد جميع أهل بلدنا وهو أننا نوينا القصر و نوى هو بالإتمام فلما اختلفنا في النية بطلت صلاتنا ثم أعدناها جماعة جمعا و قصرا ثم حثثنا مطايانا للوقوف بعرفة".[1]

ويروي الورثيلاني أنه تمكن من الدخول إلى مربع بيت الكعبة رغم استحيائه وتردده بعدما حثه أحد رفقائه الحاج أبو عزة المراكشي وبمعية أمير الحج المصري إبراهيم أبو شنب. يقول الورثيلاني:" فدخلت البيت وعلاني من الهيبة ما الله به عالم فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهه غافلا عن السنة بأن أجعله خلف ظهري لما علاني من الخجل، والدهش والوجل، ودعوت بما أمكنني وحضر لي من الدعوات معمما ومخصصا أهل المحبة والقرابات، ولم تطل مدة فتحه وإنما يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة". [2]

ويسهب الورثيلاني في ذكر مناسك الحج و ازدحام الحجاج في الأسواق ومن ذلك وصفه المشوق والبهيج لأحد الليالي بمنى و هي الليلة الثانية على النحو التالي: "ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر و أهل الشام في إيقاد المصابيح و اتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية وإكثار الرمي بالمدافع و البنادق و المحارق المرتفعة في الجو و في ذلك نزهة للأبصار، و تسلية للأفكار، و مجال للاتعاظ و الأذكار، و القبول و الإنكار، فنزل جميع أصناف العباد، و حشر إليه عمار البلاد،

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص456.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 464

فهو أجمل الأندية، و مبانيه أحسن الأبنية، تشرق في النهار فساطيطه المؤنقة، و بالليل مصابيحه المشرقة".[1]

وأما الوقوف بعرفة فجليل وأكبر من أن يوصف: " فلو شاهدت يا هذا تلك الحال وما عليه الناس في جبل عرفات، ووقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره، وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره، إذ ترى الملوك في مقام الافتقار والذلة، والفقراء في محل الاضطرار والقلة، والجميع يرغبون في المغفرة من الرحمن، ويطلبون الرحمة والعفو من العفو الرحيم الحنان المنان".

وقد أنشد الورثيلاني في ذلك قصيدة من اثنين وأربعين بيتا نذكر منها:

وَكَمْ خاضعٍ كَمْ خاشعٍ مُتَذَلّلٍ وَكَمْ سائلٍ مُدَّتْ إلى اللهِ كَفّاهُ

وساوى عزيزٌ في الوقوفِ ذليلَنا وكَمْ ثوبَ عِزٍّ في الوقوفِ لبسناهُ

ولمّا رأى تِلك الدموعَ التي جَرَتْ وطولَ خشوعٍ معْ خضوعٍ خَضعناهُ

تجلّى علينا بالمتابِ وبالرِّضى وباهى بنا الأمْلاكَ حينَ وقفناهُ

عَلى عَرفات قَد وقَفنا بمَوْقف به الذَنب مَغفُور وَفيه مَحوْناه

وَقدْ أَقبَل البَاري عَليْنا بوَجْهه وقَال ابْشرُوا فَالعَفو فيكُم نَشرْناه[2]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص468.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص460-461.

ويذكر الورثيلاني من المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها الدار التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقة الشعيب إذ "والعجب أنهم عينوا محلا من الدار بمقدار مضجع وقالوا إنه موضع ولادته صلى الله عليه وسلم ".[1]

ودار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، و مسجد العقبة الذي بايع فيه رسول الله (صلعم) الجن، و مسجد إبراهيم بعرفة و مسجد الكبش بمنى الذي نزل فيه فداء إسماعيل عليه السلام، و مسجد المتكأ بأجياد قيل أن رسول الله (صلعم) اتكأ هناك)، و غار جبل الثور الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر رضي الله عنه في هجرتهما، وغار حراء الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يختلف إليه فيه قبل النبوة و فيه نزل الوحي والجعرانة بين مكة والطائف إذ: "منها كانت عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في ذي العقدة حين قسم غنائم حنين كما في الصحيحين، ومكان مولد فاطمة رضي الله عنه، والبيت الذي سكنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة رضي الله عنها".[2]

ويذكر الورثيلاني أن بعض هذه المعالم القيمية " ليس هناك من يعتني بحفظها " ويعيد ذلك على ما "علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي لصرف اعتنائهم رضي الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذود عنها بالسنان واللسان وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام ومن مساجده عليه الصلاة والسلام ومواضع غزواته ومدفن كثير من أصحابه".

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص473

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص473-479.

وأيا كان الأمر، فإن هذه المناطق "تزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أضيفت إليه صلى الله عليه وسلم فليستحضر الزائر في قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة... ولا يشغل باله بصحة النسبة وضعفها".[1]

ويتكرر شوق الورثيلاني إلى البلاد المقدسة بعد خروجه من مكة ودخوله المدينة المنورة إذ يقول "لما أشرفنا على المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام غشينا نور عظيم وبهاء قوي لا يخفى على أهل الذوق السليم و الطبع المستقيم..." و يضيف عند دخوله المسجد النبوي "دخلنا من باب السلام على صاحبه أفضل الصلاة و السلام، و لقد تاه القلب في الجلال، و البهاء و الكمال، وانبسط علينا النور في الحال، و كنا في التنقل في مراتب التجلي أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد وطاب الحمد و الثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب مناه فغاب عن الأكوان بكامل البدور و قمر العز فتنزه عن سواه...".[2]

ويتضح في الرحلة أن الورثيلاني على علم واسع بالأماكن المقدسة بمكة والمدينة ويروي مآثرها بالتفصيل مثلما يروى عن مقبرة البقاع ومن دفن فيها وما رواه أهل العلم والفقهاء في ذلك، ومسجد قبا ومسجد الضرار ومسجد الجمعة ومسجد الفضيح ومسجد مشربة ومسجد الإجابة ومسجد الفتح ومسجد الفسح وجبل أحد وقبر الصحابة ومنهم سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، والآبار التي

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني ،المرجع السابق، ص474.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص530

شرب منها الرسول (صلعم) أو توضأ فيها "فاكستبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة وبالاستشفاء بمائها، ".[1] وتربة "صعيب" التي يتبرك بها بالمدينة، الخ.

ويذكر الورثيلاني، إما من الملاحظة الميدانية أو نقلا عن رحلات سابقة، الكثير من عادات أهل المدينة على النحو التالي:

أ-أ ن يجتمع الناس ليلة الجمعة "بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد فتأتي جماعة من المنشدين، فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، وتطريب وتقسيم والناس محدوقون "

ب-أن يكنس (في) يوم الجمعة " المسجد النبوي كله ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد ويؤتى برايتين سوداوين من ديباج مخوص أيضا فيركزان على يمين المنبر وشماله الخ.

ج-تعطيل الدراسة في المكاتب (المدارس) يومي الثلاثاء والجمعة على خلاف الحال في المغرب حيث التعطيل يومي الخميس والجمعة.[2]

د-التهنئة بحلول كل شهر "على خلاف المعتاد لدينا بالمغرب، فإن التهنئة... إنما تكون بالأعياد وما شاكلها".

هـ-الصلاة مباشرة تقريبا بعد الآذان إذ " ليس بين الآذان والصلاة قدر يسع التأهب..." ويعلق على ذلك: " فإنا لله وإنا إليه راجعون على تفويت الفضائل في أماكن قطب الأفاضل".

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق ، ص568.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه ، ص585،587.

و-الصلاة على الجنائز "بإدخال الجنازة إلى الحرم الشريف فيصلى عليها في المسجد ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف بها وقفة... ".

ر-" أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب وبإزاء الخطيب المتعاقدان، فيشرع في الخطبة ... ثم يؤتى بأطباق الرياحين ... وأطباق من اللوز والسكر ويفرق ذلك على الحاضرين ويقوم المنشد ينشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فيفترق المجلس".[1]

وكان توديعه الرسول صلى الله عليه وسلم أشد ما يكون قسوة عليه إذ يصف لحظة المغادرة "وعظم علي أمر التوديع حتى علا صوتي وارتفع وكاد أمري إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها وكيف لا وهو أن فراقه أعظم المصائب، ولم أنفصل عنه إلا بصبر عظيم وهول جسيم حزن شديد، فلم أملك نفسي عند ذلك فعظمت المصيبة وعز الصبر غير أني تسليت بانتقاله من دار الدنيا وفراق أصحابه...".[2]

المبحث الثاني: المضمون الديني

تمثل الثقافة الدينية رأس مال العلماء والنخبة في التراث الإسلامي لذلك يعتبر استعراضها في كتب الرّحلات أمرا عاديّا، خصوصا عندما تكون الرحلة من الصنف الحجازي، التي تهدف إلى توثيق مسيرة الحج إلى بيت الله الحرام.[3]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق ، ص587-589

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه ، ص612.

[3] حبيب بوزوادة، المضامين العلمية في الرحلات الحجازية الجزائرية-رحلة الورثيلاني انموذجا-، ص70.

كما في الرحلة الورثيلانية التي نجد فيها الكثير من النقاشات في الشأن الديني التي كانت تدور بين المؤلّف وبين العلماء المسافرين معه، أو الذين صادفهم في رحلته، ومن مظاهر المضمون الديني بين دفات الرحلة، نذكر:

4. الانضباط القيمي في تهذيب النفس والسلوك:

يظهر الورثيلاني في رحلته تمسكا متسقا بالسنة النبوية في سلوكياته ومواقفه تجاه زملائه في الرحلة إذ وكما يقال: تعرف حقيقة المرء في سفره. ومما يلاحظ في الرحلة أن الورثيلاني يسير في مؤخرة الركب حرصا على مساعدة الضعفاء وتجنبهم خطر مداهمة بعض العصابات التي عادة ما تستهدف المتأخرين عن الركب. ويذكرنا في أي موقف يتخذه بالعبرة القيمية التي قام عليها ذلك الموقف إن بشكل مباشر أو غيره. ويمكن في ذلك ذكر بعض أقواله ومواقفه للتوضيح فحسب.

يربط الورثيلاني الرحلة إلى الحج بضرورة إخلاص هذه الفريضة لله تعالى، فالحج يحتاج على "نية عظيمة وصدق قوي وهمة عالية وإخلاص كبير." و يضيف أن "الحج أقواها في طلب الإخلاص إذ كثيرا ما يدخل الرياء فيه لما علمت من كثرة خوف الأهوال فيه و المسافة البعيدة و ملاقاة الناس، فنجد الحاج يحكي للناس في وطنه و غيره أنه وقع في الدرب كذا و في مكة – و في المدينة و في مصر كذا و في برقة كذا و في البحر كذا ...– فيقع فيه السمعة و العجب و الرياء و بعض الكذب إذ لا يخلو المخبر بالوقائع الماضية عن – الزيادة و النقصان فيقع في الكذب قطعا و الغالب أنه ينوي بحجه المفاخرة و ليقال له أنه حج – فغالب عامة الحجاج يقصدون ذلك فيغلب عليهم الرياء و لهذا – قال الله تعالى: و أتموا الحج و العمرة لله. ولم يقل في الصلاة ذلك ولا في الزكاة ولا في غيرها من

الأعمال الصالحات". ونجد من مواقفه تجاه الاندفاع الذي يحصل في الرحلة عند محاولة التزود بالماء في الأماكن النائية إلحاحه على الصبر والسكينة: "وأن تختار من مالك الحلال لتتزود به إن وجدته وأن تزجر أصحابك عن الجدال والمنازعة عند الماء والنزول بأن يصبروا ويتخلفوا فيجدوا ما كتب لهم، فالذي يختاره الله للعبد أولى مما يختاره لنفسه، ولعل الله ينظر إليه بعين الرحمة دائما".

ويفسر الورثيلاني كلا من الإحسان والإساءة تفسيرا قيميا بليغا فيقول في ذكر تعلقه ببعض أهل طرابلس بأن المحبة والاعتقاد في أهل الخير "خصلة عظيمة شرعا" فمن " أحب قوما كان منهم وحشر معهم". ويضيف: "والمعتقد والمحب كالمحسن إذا لم يقدر على الإحسان لقوله الرسول صلى الله عليه وسلم:" يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله.." وأما " المسيء فتكفيه إساءته، ولا يخلو الإنسان من ضد ولو حاول العزلة في رأس جبل، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ولا بد لكل مؤمن من منافق بجواره يبغضه على إيمانه".[1]

وإذا كان أن المرء ليس معصوما من المعصية، فإن هذه الأخيرة أحيانا تدر بفائدة عظيمة على صاحبه لو ندم وانكسر وعاد إلى الله تعالى مطاعا ذليلا، "لأن المعصية مع الذل والاحتقار أولى من الطاعة مع العز والاستكبار لأن المقصود من العبودية التذلل والخضوع والاحتقار، فلما كانت المعصية بذلك صارت خيرا من الطاعة التي مع العلو والاستكبار".[2]

ويعدد الورثيلاني الكثير من قيم المسافر إلى الله تعالى ومن ذلك أن استصحاب الزاد والمؤونة شريعة وسنة، غير أن الاعتماد "إنما على الفضل والمنة من الله تعالى." ويضيف:" من صعب الزمان وقساوة

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص172-173.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني ، المرجع نفسه، ص239.

المكان، الاعتماد على مدد الرحمن، والتخلق في هذا الطريق بالرأفة والشفقة للضعفاء من أهل الإيمان، فإن من رحم يرحم، وأن الله في عون العبد ما دام في عون أخيه وليس التخلص من سموم عقارب الزمان، وأفاعيه إلا بترياق التفضل والإيثار بحسب الاستطاعة والامكان".[1]

ويستطرد:" ثم إن سعة الصدر وسلامته يحفظان من كل أذية دينية ودنياوية، وإن كانت سلامة الصدر ممدوحة في غير هذا الطريق غير أنها في هذا الطريق أنفع وأتم لا سيما مع وجود الرحمة والعفة وكف اللسان عن الخوض فيما لا يعني وعدم الاسترسال فيما لا يحتاج إليه".[2]

ونذكر من أقواله: "إن استقامت حالة الإنسان وكانت همته عالية متعلقة بالله تعالى لا يضره ... غلبة العجمة ولا قلة علم". وقوله "امتثل الخير ولو من عدوك، ولا تقبل الشر ولومن صديقك".[3]

وتقرأ نظرة النسبية والمستقبلية في قيم الورثيلاني إذ يقول: " نعم العاقل من عقل عن الله ما يفعل، إذا علمت هذا، علمت أن الأمور نسبية الأمثال فالأمثل، وإلا فإن نظر إلى العصر الأول فتجد أهل الطاعة منا كأهل المعاصي منهم، غير أنك إذا نسبت من كان من أهل الزمان الأول والزمان الآتي إلى زماننا فتجده أولى من غيره، والأمر اعتباري، وإلا فالظلم قد عم والجهل قد انتشر والبدعة قد صارت سنة، والسنة صارت بدعة، والحكم لله الواحد القهار ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين".

[1] يسعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2، ص398.
[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص274
[3] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه ، ص 181.

5. تمتين الروابط القيمية الاجتماعية:

يعتبر موسم الحج والرحلة إلى البيت الحرام فرصة الالتقاء والتعرف على العلماء وأحوال المسلمين في شتى بقاع العالم. ويرد في الرحلة عدّة أمثلة عن ذلك ومنها اجتماع الورثيلاني بمنى بالشيخ محمد أكرم بين الشيخ عبد الرحمن مفتي الهند وهو "رجل عالم له تآليف على رجال البخاري واختصر البخاري في مجلد حدف الأسانيد... وهو ضرير كبير السن به مرض ملازم بيته... وسألناه (يقول الورثيلاني) عن المسافة بيننا وبين الهند فقال أربعون يوما في البحر وأربعة أشهر أو ستة في البر وأن بلده هو السند وبينه وبين الهند ثلاثون يوما".

وفي الكثير من الأحيان، يحدث اللقاء بالصدفة فيذكر مثلا أنه ورد إليه "رجل ضرير فقيه عظيم يحفظ أكثر الشراح وهو مالكي من جزيرة العرب أعني البحرين فلما سألته عن أكثر أهلها فقال مالكيون".[1]

6. إصلاح ذات البين:

يذكر الورثيلاني في رحلته الكثير من المواقف التي يتدخل فيها أهل العلم والفقه في إصلاح ما أفسده الناس بأيديهم في تلك الفترة التي قل فيها على ما يذكر، العلم بأمور الدين، ومن ذلك مثلا الزيارة التي قام بها الشيخ سيدي أحمد الطيب الزواري إلى بلدة الورثيلاني قصد إخراج القوم من الفتنة التي أصابتهم من مثل "قطع الميراث وأكل أموال الناس بالباطل".[2]

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص459.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني ،المرجع نفسه، ص13-14

ولعل الورثيلاني يشير في ذلك إلى بعض العادات التي سادت (وما تزال) عند بعض العائلات البربرية التي تمتنع أو لا تعترف بحق المرأة في الميراث بفعل أن ذلك في نظرهم يشتت ثروة الأسر خاصة في مجال ملكية الأرض.

ويذكر في سياق آخر أن إن إصلاح ذات البين أمر واجب عندما تنتشر الفتنة بين المسلمين إشارة إلى النزاعات التي تصل أحيانا إلى الاقتتال وبالأخص في المناطق الجبلية البعيدة عن حكم السلطان. ويشير في ذلك إلى سعيه في إحداث المصالحة في القرى الذي كانت محل اضطرابات (والأرجح في منطقة مجانة) فيقول إنه زار المنطقة (قبل رحلته إلى الحج) " لإصلاح ذات البين إن القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترتفع والهرج بينهم قوي أزال الله ذلك بمنه وكرمه وحكم السلطان غير نافذ فيهم... وقد نص علماء بجاية على أنه يجب على أهل الخير والصلاح ممن يقبل منه أن يصلح بين هؤلاء المسلمين وإلا عصى الله تعالى".[1]

ويتكرر وصف التفكك الاجتماعي في أوساط الأهالي بمختلف المناطق التي سلكتها الرحلة مثل زمورة، الجزائر، والنماشة، على الحدود مع تونس، والعقبة، بسيناء، والحجاز، بشبه الجزيرة العربية، من جراء ضعف الوازع الديني وغياب السلطة المركزية والميل إلى الظلم والتعدي إذ ولولا وجود أولياء الله والصالحين في كل منطقة، كما يقول، لا نقطع الطريق إلى الحج.[2]

4. الاهتمام بحال المرأة المسلمة:

[1] سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص401.

[2] حبيب بوزوادة، المرجع السابق، ص73.

سافر الورثيلاني في رحلته ومعه زوجتيه وزوجة ابنه وعدد من أصحابه بالمنطقة وغيرها. وقد ورد في الرحلة نقده قطع الميراث، ولكن دون تفصيل، مثلما أسلفنا. وكان حديث الورثيلاني على المرأة انتقائيا ويخص نقد حال المرأة "المتبرجة" والاختلاط غير المشروع بين الرجال والنساء الغرباء، وذلك في الكثير من محطات الرحلة ذهابا وإيابا.

وقد أثر انتماء الورثيلاني إلى بيئته المحافظة على نظرته للمجتمعات التي صادفها أو عايشها في الرحلة حيث وصف تلك المظاهر بوصفها تعبير عن الجهل والبعد عن الدين. ويصف نساء منطقة زمورة، التي على مسيرة أقل من يوم من موطنه الأصلي، بأنهن "باديات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن لأنه من أعظم الآفات".[1]

ويزداد غضبه على بعض أفراد الركب الجزائري سيما أهل عامر بعد خروجهم من المدينة المشرفة في طريق العودة إذ يذكر: "وقد أصابتني منهم عداوة عظيمة من أجل أني آمرهم بالسنة والقيام بالأحكام الشرعية لا سيما السير بسيري الشيخ والنزول بنزوله وستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل الناس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن، فأردت إقامة الحد عليهن وعلى أزواجهن فصارت لي فتنة عظيمة... "

ويضيف:" ثم تطاير البعض وتشاءم البعض الآخر وتاب من بقي منهم".[2]

[1] سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 109.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص622.

ويستند موقف الورثيلاني من مسألة الاختلاط إلى الأحاديث النبوية التي ذكرها وإلى مبدأ سد الذرائع في مجتمع يعيش التفكك الاجتماعي ويكون ذلك استدراجا "حتى يغلبه الشيطان فيقع في مهواة الضلال وربما سقط من عين الله إلا أن يتداركه الله من فضله...".[1]

5. فكرة التسليم لله:

تتضمن الرحلة اتجاها أقرب إلى النزعة "الصوفية الغزالية" إلى حد كبير رغم أننا لم نعثر في الرحلة على أية إشارة إلى الغزالي (أبو حامد)، ولكن، وكما أشرنا، فإن الفكر الغزالي انتقل إلى الورثيلاني ربما عن طريق السيخ عبد الرحمن الوغليسي صاحب الوغليسية التي يرد ذكرها في الرحلة عدة مرات. ولعل هذا المقطع أسفله عن عقد النية إلى الحج أقرب إلى الخطاب الغزالي إن صح هذا التعبير: " فالعناية حاصلة لمن وصل إلى حرم الله وحرم رسوله وكيف لا وأن الصلاة في مسجد مكة ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم تعدل ألف صلاة في غيره أو كما قال النبي الكريم، وأن الدعاء في عرفة ومزدلفة والمشعر الحرام ومنى و مسجده و عند الرمي و عند الملتزم و عند الحطيم و زمزم و عند الحجر و غيرها مستجاب. و بالجملة، فينبغي أن ينوي بسفره رضي الله تعالى وأن يغل نفسه بالتوجه إلى الله و إلى بيته و مواجهة نبيه (صلعم) و مواجهة أصحابه و آله وعترته و مواجهة أنبياء الله و رسله عليهم الصلاة والسلام وأن ينتظر شفاعتهم بأن يتعلق بهم بحيث ينوي الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة و السفر من الخلق إلى الخلق ومن طبائعه الردية إلى السجايا السنية وإن كانت غير مكتسبة وينوي أيضا أن يكون من وفد الله تعالى و ضيوفه وأن يقصد أيضا إجابة

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص238

الداعي الذي هو الآذان وأن يحمد الله و يشكره لما أن جعله من أهل الإجابة ومن الذاهبين لبيت الله تعالى، ألا ترى إذا ذهب الإنسان إلى بيت قريبه يفرح فرحا عظيما و يسر سرورا كبيرا فكيف ببيت ربه سبحانه و ينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل إن كان جاهلا، وأن ينوي الزيارة لأحباب الله الأحياء و الأموات في كل وطن يدخله سواء من يعرفه أو لا و أن يعتبر و يوحد الله فيما يراه من عجائب المخلوقات....وأن يكف لسانه عن القيل و القال إذ أكثره فيه معصية الله تعالى، وأن يشغل جميع أعضائه بما فيه رضي الله تعالى وأن يختار من الإخوان ما يزداد به إيمانه للصحبة ...[1]

ويذكرنا الورثيلاني بأن "الذي يختاره الله للعبد أولى مما يختاره لنفسه ولعل الله ينظر إليه بعين الرحمة دائما." وهنا يشير إلى تأثره بالوغليسية في هذا فيضيف "انظر للشيخ عبد الكريم الزواوي على الوغليسية فإن أجاد في نصح العبد وأعانته على ما فيه رضاه".[2]

إن الرحلة الورثيلانية "عظيمة" من الناحية التاريخية أو الاجتماعية أو الدينية أو الحضارية أو الثقافية التواصلية، فقد كان الورثيلاني شاهد زمانه فوثق ما جاد به علمه ونطقت بها قريحته بمنهج قويم وأسلوب رزين أقرب إلى الطرح العلمي والموضوعية "الدقيقة" من الوصف الذاتي المحض أو "العشوائي" للأحداث و الوقائع.

وقد وظف المعارف السائدة في تلك الفترة من القرن الثامن عشر من تأريخ و أدب و رحلات و فقه وتفسير وعلم كلام وتقاليد صوفية في تفسير و تحليل بل ونقد أحول العباد والبلاد والعادات والمآثر التراثية والسلوكيات الاجتماعية إضافة إلى الطرائف والعجائب والمخاطر التي صاحبت رحلته

[1] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع السابق، ص46.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، المرجع نفسه، ص48.

المشهودة من موطنه الأصلي بني ورثيلان، الجزائر إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، فأتت رحلته جامعة مانعة قلما تجدها في مثل هذه المصادر.

الفصل الثالث

جمالية الرحلة الورثيلانية

البناء الفني – والأنساق الثقافية .

المبحث الأول: البناء الفني.

المطلب الأول: الصورة الفنية.

المطلب الثاني: بنية الحكي في الرحلة الورثيلانية.

المبحث الثاني: الأنساق الثقافية التاريخية والاجتماعية لحسين الورثيلاني.

المطلب الأول: النسق الثقافي التاريخي للرحلة الورثيلانية.

المطلب الثاني: النسق الاجتماعي

تمهيد:

تعد النصوص التراثية على وجه الأخص أكثر النصوص اكتنازا للمعارف والعلوم المختلفة الإنسانية منها وغيرها، لذلك تحمل بين ثناياها زخما فكريًا، وتعداد ثقافيًا، وإنسانيًا معرفيا حمولته ضخمة، ولعل المتون الأكثر مطابقة لتلك الأوصاف السابقة ما اختص به أدب الرحلات.

تتشكل بنية النصّ الرّحلي من عناصر مختلفة، تألفت فهي تجربة، وأقوال، وعلاقات وتصورات وتفاعلات رغم ظاهرها التقريري في نقل الأحداث وتواريخها، وغلبة الذاتية عليها في الملاحظات والتعليقات، حيث يعد البعض أدب الرحلة على أنه نشاط فكري يتخذ من الثقافة شموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطورها وسماتها.

لا أحد ينكر ما أفاده المثقفون منذ أقدم العصور من أدب الرحلات، فينوع موضوعاتها جعلها قبلة لمنتج المعلومات التاريخية والجغرافية والشعرية ، واكتشاف للأنساق الثقافية المختلفة.

المبحث الأول: البناء الفني

تكسب الرحالة قدرة كبيرة على استجماع الأحداث، حيث كان حسين الورثيلاني يجمع إلى جانب ما سبق العناية برصد الواقع كما هو دون اللجوء إلى الخيال ومن أجل فهم ذلك سوف نتطرق إلى مطلبين نتحدث فيهما عن الصورة الفنية والحكي .

المطلب الأول: الصورة الفنية

يسطر الأدباء و الشعراء ابداعاتهم على قدر ملكاتهم الفكرية واللغوية والفنية، لذلك نجد الصورة الفنية هي الصوت الفارق بينهم وتميّز أحدهم عن الآخر تفوقا وإخفاقا، رغم أن النثر أقل حاجة من الشعر إليها، وحجّة بعض النقاد والباحثين في ذلك كون الشعر عماده الوصف التحليلي، و لا يمكن الاحتكام إلى هذا الرأي على أنّه من المسلمات، ثمة أجناس أدبية تزخر بالصور الفنية المتعدّدة كأدب الرحلة، وقد أسهب الورثيلاني في تجسيدها في رحلته بأسلوب بليغ و واضح، في نقل ما واكبه من أحداث حتى تبدو كأنها حاضرة يراها المتلقي مباشرة[1].

يعد الشيخ الحسين الورثيلاني سيّد الرّحالة في عصره، و تعد رحلته باكورة الرحلات الجزائرية الحجازية، و ميراث ضخم في أدب الرّحلة الذي هو لون أدبي ذو خصوصية تميزه عن غيره من الألوان الأدبية النثرية الأخرى، فهو يتفق مع الرواية في الإفادة من معطياتها الفنية ومشاكلها للسرد والوصف، إلا أنّه يحمل سمة، إذ يجمع إلى جانب ما سبق العناية برصد الواقع كما هو دون اللجوء إلى الخيال إلا في محاولة اختيار الأسلوب، و تقديم المعلومة في ثوب أدبي، و هنا نجد أنّ الحسين الورثيلاني قد اتكأ على مقدرته الأدبية في توظيف الصورة الفنية، من حيث تركيزها واستطاعته الربط بين تفاصيلها وإبراز المشاعر والعواطف، الانفعالات من خلالها. 2

[1] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة دار العربية للكتاب، مصر، د.ت، ط2، 1423هـ/2002م، ص 174.

[2] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 174.

تكسب الرحالة قدرة كبيرة على استجماع شتات الأحداث المتعلقة بشخصياتها والأماكن التي وقعت فيها، والفترة الزمنية التي احتوتها، راصدا كل ذلك بلغة خاصة محاولا من خلالها التأثير في نفسية المتلقي واقناعه.

حيث تبين لنا الصورة الفنية على قدرة الرحالة على توظيف الخيال لكونها قائمة على الابتكار حتى تستطيع أن تمثل إعجاب النفس، وتفاجئها بالمعاني والدلالات الإيحائية التخييلية التي لا عهد لها بها، فتثير دهشتها واستغرابها وتستدرجها لاتخاذ الموقف المناسب من التجربة الشعورية التي تعرض من خلالها، لأن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية،[1] حيث تتجلى من خلالها الملكية اللغوية والخيالية للرحالة في الاسقاط على التجربة الرحلية بكل مكوناتها من وقائع وأحداث ومشاهد بتلقائية تامة وإن كان غرضها التبليغ والتأثير والايصال، وبسط نفوذ الصورة الفنية التي تعد الطريقة البلاغية المعتمدة على التشبيه، المجاز والكناية، أو كانت وصفية سردية لا تعتمد على الألوان البلاغية.[2]

استطاع الشيخ الحسين الورثيلاني استثمار قدرته الأدبية واللغوية، في طرح صورة فنية ترفع من أفق التخيل لدى المتلقي (السامع القارئ الناقد)، بتفعيله آليات التخييل، فنجده على سبيل المثال يصف مدينة أثرية قرب الجبل الأخضر، ببعد خمس مراحل عن مدينة الإسكندرية، فيقول عنها "مدينة لبدة قد خلت في العصور الأوائل و بقيت آثارها و رسومها قد أكل البحر كثيرا منها، و فيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة، وأبراج مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان قد هرم الدهر وما هرمت و تعاقبت عليها الأزمنة وما ثملت، فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مدّ البصر" ،[3] ومثل هذه الصورة واردة بكثرة في متن الرحلة، خاص لدى وصف الرّحالة الأماكن التي أبهجت ناظره، وتعلقت

[1] محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 159.

[2] عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص 127.

[3] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 223.

مراسمها بخيال ذاكرته في مواضع المدح أحيانا، و الذم أخرى لما كان له من الواقع السلبي في نفسه كقوله: "ونخل هذا الساحل رديء التمر كله لا يدخر ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى الجلدة فيه و لا حلاوة ولا طعم قال الإمام أبو سالم لا تكاد تفرّق بينه و بين لحاء الشجر"،[1] ويمثل هذا التصوير الذي كان مطواعا للغة الرحالة المالك لناصية بلاغتها، ما مكنه في مواضع عديدة من الخلاص من المشابهة، إلى تجسيد المشهد المعيش رؤية عين، وتركيب مشهد من لمسات الخيال يتبدى للمتلقي صورة حية قابلة للمعاينة و لو تصوّرا.

1.توظيف الشعر في الرحلة:

للشعر خصوصية في التعبير عن المشاعر، لذلك قيمته كبيرة في القلوب، ووقعه خاص في النفوس، ومكانته لدى العام و الخاصّ معلومة و لم يخف هذا الأمر على الرحالة فلجأ إليه أي الشعر في أحايين كثيرة ، يعبر به عن لواعج النفس ، وحرفة القلب، فها هو ينشد ما اختلج في

صدره بسب فراق أرض هي مهاجر الرسول صلي الله علية وسلم، ضمته حيا وميتا، فبعد وصوله الى المدينة المنورة ومجاورته قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مضت الأيام في لمح البصر، وحان موعد الأوبة، فاضت عيناه دمعا بعدما خنقته العبرة، وتقطعت أحشاؤه ، وتمزقت نفسه فأنشد قائلا:

يَا رَسُولاً لَنَا أَتَى بِكِتَابٍ و الكَرِيمُ الْمِعْرَاجُ وَ البَرْقُ خِلابِي
لَمْ تُعَارِضْ آيَاتِهِ بِاتِّفَاقِ طَرِيحًا سَارَ فَوْقَ البُرَاقِ

ثم يقول معبرا عن عدم ارتوائه بما يكفي من جوار قبره الشريف عليه الصلاة والسلام

أَن عَنْ قَبْرِكَ الشَّرِيفِ الْصِرَابِي وَ لَئِنْ كُنْتُ بَلَلْتُ غَرَامِي
و الصِرَامِي وَ مَا شَفَيْتُ اشْتِيَاقِي بِالْتِنَامِ وَ الثَّرَى فَعِنْدِي يُوَاقِي[2]

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 224.
[2] الحسين الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 213.

لم تعرف النصوص القديمة ما يسمّى بالتخصص، فقد كانت توليفة من الأجناس الأدبية الممتزجة في متن ،واحد و لا مناص أن تتصف الرحلات القديمة بذلك، فتداخل فيها الشعر بالنثر و القص بالسّرد و الحكي ... وغير ذلك، أما الشعر فله من الخصوصية ما يميزه، إذ يعد عنصرا هاما في تشكيل متن الرّحلة ، و هذا دأب الأدباء القدماء[1].

لا يقتصر أدب الرحلة بخصائص الفنون السردية فقط، بل تجاوزها إلى فنون أدبية أخرى، كالشعر، فالشعر ديوان العرب الذي لا يمكنهم الاستغناء عنه، لذلك نجد له في هذه الرحلة حضورا كبيرا، فكثيرا ما لجأ الشاعر لتوظيفه للاستشهاد به فأورد منه ما هو من نظمه لإظهار قدرته الشعرية والنثرية على حد سواء، أو أشعار غيره دلالة على سعة إطلاعه، وقوة ملكته الحافظة، مما منح الرّحلة دعامة قوية، وساهم في الارتقاء بالخطاب الرحلي إلى المستوى الفنّي الجمالي، الذي ينقل المتلقي من مرحلة الإقناع إلى مرحلة الامتاع ، و قد اعتمد الرحالة تلك الأشعار لغايتي التبيج أحيانا والتبليغ أخرى، فبعدما أخذ الشوق لزيارة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلّم مأخذه، و عزم على الحجّ راح ينشد مودعا أهله و أحبابه:

مَا أَصْعَبَ التَّوْدِيعِ بِالْأَحْبَابِ وَ عِنْدَهُ بِالْحُزْنِ وَ اكْتِئَابِ

وَ كُلُّ نَفْسٍ تَزْعَجُ لِلْافْتِرَاقِ لِفُقْدَانِ الْمَأْلُوفِ بِاخْتِنَاقِ

فَأَشَدُّ النِّيرَانِ نَارُ بِافْتِرَاقِ لَعَمْرُكُمْ قَدْ هَبَّتْ نَارُ بَاخْتِرَاقِ

فَتَحْوِيلُ الْوَجْهِ عَنِ الْوَدَاعِ بِشِدَّةٍ يَرْجِعُ بِالصَّدَاعِ

أَيْتُهَا النَّفْسُ تَحَمْلِي وَ اصْطَبِرِي لِتَوْدِيعِ الصَّحْبِ لِخَيْرٍ وَخَيْرٍ[2]

ودع الشيخ الحسين الورثيلاني أهله وأحبابه في جو تملأه الآهات والعبرات المسكونة و الصراخات المتعالية ولكنّ الرّغبة الشديدة في زيارة بيت الله الحرام، والشوق لجوار رسول الله صلى الله عليه وسلّم أولى و الفراق لا بد منه عن الأهل و الخلان.

[1] حبيب بوزوادة، المرجع السابق، ص 64.

[2] الحسين الورثيلاني، المرجع نفسه، ص 104.

يعد الوقوف بعرفة من أجل المواقف في نفس الحاج أكسبته قداسة المكان هيبة ورهبة، يمتزج فيها الخوف بالرجاء، و قد فاضت قريحة الرحالة بفيض من المشاعر، فنظم قائلا:

فَكَمْ حَامِدٍ كَمْ ذَاكِرٍ كَمْ مُسَبِّحِ وَ كَمْ مُذْنِبٍ يَشْكُو لِمَوْلَاهُ بَلْوَاهُ

وَ كَمْ خَاضِعٍ كَمْ خَاشِعٍ مُتَذَلِّلٍ وَ كَمْ سَائِلٍ مَدَّتْ إِلَى اللَّهُ كَفَّاهُ

وَ سَاوَى عَزِيزًا فِي الْوُقُوفِ ذَلِيلًا فَكَمْ ثَوبَ دْلَ فِي الْوُقُوفِ لَبِسْنَاهُ

وَ رَبِّ دَعَانَا نَاظِرٌ لِخُصُوعِنَا خَبِيرٌ عَلَيْهِ بِالَّذِي قَدْ أَرَدْنَاهُ

و لَمَّا رَأَى تِلْكَ الدَّمُوعِ الَّتِي جَرَتْ وَ طُولِ خُشُوعٍ مَعَ خُضُوعٍ خَضَعْنَاهُ

المطلب الثاني: بنية الحكي في الرحلة الورثيلانية

يحاول الرحالة من خلال ترحاله و تنقلاته رصد الأحداث التاريخية لكل الأفراد و المجتمعات التي خالطها ، فسمع منها، أو طالع بعضا من أخبارها التاريخية المكتوبة، بما يشكله من دلائل و قرائن يستعين بها صاحب الرّحلة في تكثيف متن رحلته، فتصدر في شكل سردي غاية في الحبك، تعكس الوضع الإنساني الإثني والثقافي الاجتماعي و السلوكي، و الاقتصادي، لدى أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات.

يذهب الشيخ الورثيلاني في عرضه لتاريخ المجتمعات السابقة، إلى أثنية الأجناس المتصاعد تاريخها عبورا إلى ما وراء العصور الغابرة، كتاريخ طغاة التاريخ أمثال " فرعون مصر"، أو من يلقب بفرعون موسى عليه السّلام، في احتفاظه ببعض التربة التي ماتت فيها الضفادع التي سلطها الله عقوبة على فرعون وقومه من بين العقوبات التّسع، فيقول: وحكى أن فرعون لعنه الله كان يفتن الناس بها فيعد تراب فرائسها فيحفظه عنده و يعد مطر النيسان في قوارير و يقيم عليه وكيلا و إذا أراد فتنة أحد أمر قيم التراب فيأتيه بقبضة منه، و يأمر الآخر فيأتي بشيء من مائه فيجعله في يده و يضمها عليه مدة حتى يحس بتكوينه ضفدعا، فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدعي أنه خلقها عليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين،[1] كما أورد ذكر تاريخ مدينة الإسكندرية حسب ما ورد في الحديث الذي

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 303.

أخرجه ابن الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص : قال كان أول من عمرها و بنى فيها فلم تزل على بنائه و مصانعه إلى أن تداولها الملوك ملوك مصر بعده ، و يسترسل في ذكر ما سمعه من حكايات عنها إذ يقول : فلما ظهر سليمان بن داود عليهما الصلاة و السلام على الأرض اتخذ بها مسجدا، ثم إن ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة وغيرهم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره و لم يهدمه و أصلح ما كان خرب منه و أقر المنارة على حالها ثم بنى الإسكندرية من أولها، تجمع الحكايات المذكورة تفاصيل تاريخية عن بناء مدينة الإسكندرية و تاريخه، إذ تبيّن مدى اهتمام الرحالة بتقصي أخبار أعلام التاريخ الإنساني، و سعة اطلاعه، من خلال سرده تاريخ بناء مدينة الإسكندرية، و مختلف الحكّام الذين ساهموا في إعمارها عبر العصور المختلفة، إذ تتماهى الأحداث، وتتشاكل لأجل توصيف المدينة من خلال الأخبار المنقولة، حقيقة مشهودة (ما رأه من (عمرانها أو ما بلغه من أخبارها، فلا يتدخل فيما ينقله، بل يكتفي بسرده بأمانة مطلقة، و محايدة، فلم يظهر توافقا مع رواية و لا اعتراضا على أي خبر عنها، ويختتم ما أورده عن مدينة الإسكندرية بالحديث عن بناء منارته من طرف كليوبترا الملكة، و أهم المساجد الموجودة فيها، ثم ينتقل للحديث العام عن المدينة و أهم منشآتها، و مرافقتها، و موقعها ... و مختلف عجائبها.

تعدّدت الروايات حول مدينة الإسكندرية ذاتها بتعدد الروايات، فالحكي يخضع للأخذ والرد من طرف عديد الرواة لأنّ "تعدّد الزواة يؤدّي غالبا إلى تعدّد وجهات النظر حول قصة واحدة،[1] و قد تمركز الحكي هنا حول مكان واحد ، و هو مدينة الإسكندرية، و تاريخها وحكامها و مجتمعاتها، لأنّ الرّحلة تقوم على" تقديم معرفة متنوعة مباشرة عن المعلومات الأدبية و التاريخية والجغرافية والإثنوغرافية، و غير مباشرة يتشكل من آراء و مواقف الراوي عن ذاته وعن الآخرين.[2]

[1] حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2000، ص 49.

[2] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص 272.

يذكر الورثيلاني في رحلته أوضاعا اجتماعية كثيرة، منها ما استحسنه، ومنها ما استهجنه كأحوال بعض النساء في اختلاطهم غير المشروع بالرجال، فيما لاحظه أثناء ترحاله ذهابا و إيابا لكونه رجل دين، فهو الإمام الفقيه المتصوّف، الذي نشأ في بيئة محافظة، لا يمكنه استصاغة بعض المظاهر التي وجد عليها على بعض المجتمعات التي تنتسب إلى الإسلام بالظاهر فقط، و كان يراها جاهلة بعيدة عن الدين، فيورد ذكر بعض نساء منطقة زمورة، إذ هي على مسيرة يومين من بلدته وقد وصفها بوفرة الشجر المثمر و النخيل كثيرة الأمطار والعيون ومع ذلك فهي كثيرة المعاصي،[1] إلى أن يقول عنها: "وقل الحكم فيها وارتفع، و زاد لما ذكر فنساؤهم باديات مكشوفات هداهم الله لحجبهن لأنه من أعظم الآفات، فالرحالة و هو يمتدح البلدة زمورة) و ما حباها الله به من نعم، يستهجن ما كانت عليه نساؤها من سفور وتبرّج، ففي النسق الظاهر إفتاء بضرورة التحجب و الستر، وفي نسقه المضمر غيرة الرّجل الشريف على نساء بلده، و الحفاظ على كرامتهن بالدعوة للاحتشام.

اهتم الرحالة لأمر الظروف الاجتماعية العادات والتقاليد، فأورد طقوس الزواج في المدينة المنورة، حيث يزف الزوج إلى بيت زوجته إذ المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تزف إلى زوجها وأنّ الدخول في بيت الزوج، و عند هؤلاء لما كانت العادات الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يزْفَ، فإذا ذهب الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج ، و لكل قطر عادة. يذكر الرحالة ما اعتاده الناس في حال الزواج من انتقال المرأة إلى بيت الزوج، عكس ما يحدث في المدينة المنورة من عادات، و لا يجد في ذلك ضيرا و لا ما يخالف الشرع، إنّما هي العادات الثابتة لدى كل مجتمع و هذا ما يجعلها ثابتة مقبولة في بيئة المجتمع المدني.

تحققت بنية السرد فيما يحكيه الشيخ الورثيلاني، عن الوضع الاجتماعي للمرأة في المجتمع الإسلامي، وديناميةاختلافه باختلاف البيئات، فأولى أهمية كبيرة لذكرها و ذكر ما يخص أحوالها المختلفة.

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 109.

وقد حظيت الحكاية الحلمية باهتمام كبير من الشيخ الحسين الورثيلاني وهي إما رآه الرحالة في منامه، أو ما سمعه من رؤى وأحلام الآخرين تصل في بعض الأحيان إلى العجيب أو الغريب الذي يحتل حيزا كبيرا من بنية السّرد الحكائي محققا بذلك "وظائف خاصة تنتمي للفكرة العامة التي يقترحها النّصّ، بل إنّ توليد منامات مشحونة بفعل السفر، تعمل في بعض النصوص على تحقيق المنام الرئيس"،[1] الذي يعرضه الراوي في ابتداء النص، فكأننا بإزاء وحدات حكائية مجترأة تنضم لبعضها مشكلة بذلك الإطار الفاعل المحتضن للمشهد الحكائي الرئيس ، و يخضع الحلم المحكي إلى ما يسمّى بالتأويل استكمالا لآليات السرد، ولا يتعدى الحلم كونه "تجربة سمعية أو بصرية تروى على أنها حدثت أثناء النوم"[2].

والحلم يختلف عن الرّؤيا حسب ما جاء في الأثر، إذ أنّ الرؤيا من الله والحلم من الشيطان."[3] فالرؤية الصادقة من ميراث النبوة، التي اكتمل أمرها وانتهى بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد ذكر الرؤية في سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ"[4]، وصار تأويل الرؤى علما مؤسسا له.

أورد الورثيلاني كثيرا من رؤيا الأولياء والصالحين والفقهاء، منها ما رآه أحد الصالحين– حسب ما أورده عن الشيخ أبي سالم – في قضية إنكارهم خروج أهل المدينة إلى جبل أحد في رجب، و رآه من البدع حتى "رأى رسول الله صلى الله عليه و سلّم وهو يدخل ويخرج من الحجرة، و يقوم و يقعد، كفعل المتهيء للسفر، و أثاث السفر معدة بين يديه، فقال له: يا رسول الله ما هذا الذي أرى ، أتريد الانتقال عنا و الخروج من المدينة، قال: لا، إنما أريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة، أو

[1] رعد الناصر، المنامات في الموروث الحكائي العربي، دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، المدرسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 168.

[2] فدوى مالطي دوجلاس، بناء النص التراثي (دراسات في الأدب والتراجم)، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1985، ص 151.

[3] محمد بن سيرين، منتخب الكلام في تفسير الأحلام، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010، ص 385.

[4] من القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية 04.

كلاما هذا معناه، فانتبه الفقيه من نومه و تهيأ للخروج مع الناس، فتعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك"،[1] فكل أمور المسلمين متعلقة برسول الله صلى الله عليه وسلم تعلقا روحيًا معنويًا، و في هذه الرؤية إشارة إلى أن فعل أصحاب المدينة لا يخالف الشرع، و أنه مستحب.

يبدو من خلال الرّؤى الاستشرافية كأنّ "الحالم يحقق في أحلامه زمنا عجائبيًا يجب أن يتلقاه المتلقي بالتصديق، و قد يتماهى في بعض الأحيان معه"،[2] و تزيد مصداقية الرؤيا كلّما تحقق جلّها أو بعضها، فتصبغ على صاحبها صبغة الكرامة.

تتحقق الرؤى لأصحاب الكرامات من أولياء و صالحين، كما لو أنها واقع مشهود، يحكي الرحالة قال: "أخبرنا شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشايخه أن سيدي عبد الوهاب الشعراني عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد البدوي و أن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر، فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد البدوي و خليفته من بعده، فقال له مباسطا: يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية، واتفق أن ذهب الشيخ عبد الوهاب ن ولما بلغ المكان المقام فيه المولد عشاء هم ملوخية، وأنّ القائمين على المولد والأسر، والقرى المجاورة لم يطبخوا غيرها فطعم منها، فتحققت الرؤيا كما هي، ليسرد بذلك حكاية كرامة احتوتها رؤيا وجسدتها الحقيقة، فبنيتها الروحية هي بنيتها الواقعية، دلالة على تحقق الكرامات لأصحابها حتى بعد مماتهم.[3]

المبحث الثاني: الأنساق الثقافية التاريخية والاجتماعية لحسين الورثيلاني

تعد الرحلة موسوعة لمختلف العلوم، والأنساق والبنى الثقافية والاجتماعية والتاريخية، بالإضافة إلى قدرة الرحالة على المزج في توظيف اللغة، والعبارات الفقهية العاكسة للثقافة.

---

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 555.

[2] ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 72.

[3] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 557.

المطلب الأول: النسق الثقافي التاريخي للرحلة الورثيلانية

زخرت الرحلة الورثيلانية بكثير من الأخبار التاريخية، فقد أورد فيها أخبارا جمة عن المدن والقرى الجزائرية و الأمصار التي زارها بذكر عاداتهم و تقاليدهم، و طبائعهم وصفاتهم إلى جانب جزء ليس باليسير من سيرته الذاتية، و يذكر أبو قاسم سعد الله أن هذه الرحلة " تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر ميلادي (18م)، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال و كان تكرار حججه وإتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلت الورثيلاني حكما منصفا على العصر وأهله"،[1] لذلك تكمن القيمة التاريخية لرحلة الشيخ الحسين الورثيلاني فيما تضمنته من معلومات ووقائع سياسية واقتصادية، ورصد ثقافة البلدان التي زارها خلال رحلته، داخل الوطن وخارجه.

وما يجعل من متن رحلته وثيقة تاريخية موثوقة، صدقه في عرض الوقائع وذكر الأحداث التي عاشها وعاشها في تلك البلدان، ولم يكتف بمشاهدته الخاصة فقط في ذكرها بل استند إلى مصادر سابقة تؤكد ذلك أمثال سالم العياشي، و أبي العباس أحمد الغبريني، و أبي عبيد البكري (كتابه المسالك و الممالك).

اعتمد الشيخ الحسين الورثيلاني في عرضه للوقائع والأحداث على تحري الحقيقة، فجاءت أحكامه صارمة، و انتقاداته لاذعة لحكام ذلك الزمان لكونهم السبب الرئيسي في انتكاس أحوال الناس، عدم الاستقرار السياسي، حالات الفوضى و انعدام الأمن تفشي الرذائل، و الرحلات المطردة التي كان يقوم بها، لذلك كانت تلك الرحلات إلى جانب اتقانه للغة العربية واطلاعه على عادات الدول التي مر بها دافعا قويا إلى إصداره أحكام منصفة على أهل ذلك الزمان حكاما و محكومين،[2] والشاهد أن متن الرحلة احتفى كثيرا بذكر أوضاع الجزائر المختلفة سياسيا، واقتصاديا واجتماعيًا ودينيا

[1] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 394.

[2] ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1999، ص 419.

.... لذلك يمكن العودة إلى الزحلة والاستعانة بها في تدوين و إعادة صياغة تاريخ الجزائر زمن الحكم العثماني، لأنها استطاعت تقديم صورة وافية شاملة عن البلدان التي زارها الورثلاني، خاصة مداشر وقرى ومدن الجزائر و الدليل على أهميتها التاريخية أن الفرنسي المحتل اعتمدها في الاطلاع على عادات وتقاليد ونمط عيش السكان منطقة القبائل، مما ساعده على الاستيلاء عليها، والاستبداد بأهلها و الاحتراز من خطرهم عليه.

زار الورثيلاني في رحلته الداخلية قبل أن يتم صوب بلاد الحجاز، مناطق كثيرة في الجزائر منها : زمورة، قصر الطير أولاد دراج بريكة طولقة بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، زواوة .... وغيرها. و من الأخبار التاريخية ذكره لأحوال طولقة أن يكون مادة تاريخية موثوقة تؤرّخ بصدق للمنطقة، فكون الورثيلاني غريب عنها، فرأيه في حكامها وسبل عيشها وكل أمورها سيورده دون تحيز "وبالجملة كما قال الإمام العياشي في رحلته ما رأيت في البلاد التي سبكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصل ولا أجمع لأسباب المعاش، إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر العرب فيستولي هؤلاء تارة و هؤلاء تارة أخرى إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التي يأتي الماء منها إلى بسكرة فملكوا البلد و أضروا بأهلها و أجحفوا بهم في الخراج ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله واجتمعت فيها غارات العرب من خارج وظلم الأتراك من داخل وقد اشرفت على الخراب"[1].

ثلاثة

ذكر الرحالة أخبارا كثيرة حدثت في بلاد الحجاز لسنة حجته " و في تلك الحجة، و هي عام و خمسين و مائة و ألف (1153) ذهب معنا العلامة الفاضل و المنور الكامل تلميذ سيدي عبد الحفيظ المذكور سيدي أحمد التليلي كان كريما فاضلا بحيث لا صبر له عن إطعام الطعام في الطرق و كان يعرف السير كثيرا على أني زرت معهم في بدر و مكة والمدينة المشرفة 2، و كما سبق ذكره فإن الرّحلة الورثيلانية أرخت لعديد الأحداث و الأوضاع السائدة

[1] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 117.

آنذاك، كأحوال الحجاج و ما كان يعترض سبلهم من قطاع طرق، و احوال مناخية صعبة وغيرها من العوائق.

المطلب الثاني: النسق الاجتماعي

يعرف النسق الاجتماعي حسب "تالكوت بارسون " في مؤلفه عن النسق الاجتماعي "أنه أعمال منسقة يقوم بها مجموعة من الأفراد بانتظام ويتصرفون بشكل متشابه في المواقف المتشابهة، يتحكّم فيه عاملان هما: التنشئة الاجتماعية و الضبط الاجتماعي، وهما رافدا توازن المجتمع ،[1] في حين يعتبر روبرت ميرتون، عالم الاجتماع الأمريكي النظم الاجتماعية ينجم عنها بعض الخلل الوظيفي مما يعود على المجتمع سلبا، فيؤدي إلى الفشل في تحقيق الرفاهية لأفراد المجتمع ، وكذلك يرتبط أفراد الأسرة الواحدة بما يقره المجتمع من نظم وما يقننه من قواعد لتسير حياتهم بعيدا عن الفوضى والهمجية[2].

أهم ما في الجانب الاجتماعي للحياة البشرية هي تلك العلاقات التي تربط بينهم إيجابا وسلبا في إطار نسقي معيّن و ذلك ما اختصّ به علم الأنثروبولوجيا الذي هو علم دراسة الإنسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريا، فهو يدرس الإنسان من حيث أبعاده المختلفة، الاجتماعية، البيوفيزيائية، الثقافية، ويهتم بمسار تطوّر الأجناس البشرية من حيث تطوراتها الاجتماعية في أطرها السياسية والدينية، اقتصادية، قانونية... وغيرها، بل حتى إرثها الفكري وأنماط القيم، وإبداعاتها المختلفة، أدبية فنية جمالية حتى الموروث الثقافي من عادات وتقاليد، ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، و إن كانت لازالت تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية ، فمن خلال تتبع المسار

[1] طلعت ابراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزيات، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الغريب، القاهرة، ط1، ص 72.
[2] طلعت ابراهيم لطفي، المرجع نفسه، ص 76.

التفرعي للنسق الاجتماعي، يمكن رصد مختلف النشاطات الخاصة بالمجتمع الإنساني حسب البيئة التي نشأ فيها وتكيف مع خصائصها.[1]

أولى الحسين الورثيلاني عناية كبيرة للجانب الاجتماعي في حياة البلدان التي مر بها سواء داخل الوطن، أو خارجه أثناء رحلته فرصد عديد مظاهر الانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي بدءا من موطنه بني ورثيلان وصولا إلى مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، واستعرض مدى تشابهها في مختلف الأمصار الإسلامية، و لعل ذلك يظهر الحالة المشتركة التي كانت تعيشها الأمة الاسلامية آنذاك، فسرد أحداثا مختلفة عن الجهل، الظلم، قطع الطريق على المسافرين المطور على الممتلكات الخصومات والنزاعات المختلفة بين القبائل والعروض، تفشي ظواهر معادية للدين ،تماما كالبدع والخرافات، الشرقيات، و قد أرجعها الرحالة إلى عاملين أساسيين هما:

أولا: البعد عن الفهم الحقيقي للدين وتشريعاته وقيمه الأصلية.

ثانيا: تراجع نفوذ الحكم التركي، واقتصاره على مناطق التحضر (المدن)، و يصور الورثيلاني حال وطنه وهو يغادره قاصدا البقاع المقدسة، " نعم صرنا في توديع الناس من كل بلد من حمزة ووادي بجاية وغيرها وبالجملة فوطننا طيب فيه العلم وبعض الكرم للغريب وفيه الزيتون والعنب والتين بكثرة والحرث غير أن الوطن عزيز غال وسبب ذلك كثرة الناس غير أنه خال من السلطان وأحكامه فالوطن سائب عمره الله بالأحكام الشرعية "[2]. ظاهر مشاعر الرحالة مدى تعلقه بالوطن، بينما الخفي (المضمر) التسخط على حكم الأتراك، وفساد سياستهم.

[1] أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981، ج1، د.ط، ص 07.

[2] الحسين الورثيلاني، المرجع السابق، ص 151.

تعد رحلة الحسين الورثيلاني نموذجا في تعدّد الأنساق الثقافية، فرغم اشتراك الشعوب الإسلامية التي خالطها الشيخ الحسين الورثيلاني أثناء رحلته في الدين واللغة، إلا أنه ثمة فروق أنثروبولوجية جعلتها متمايزة في الخصوصية، ويستمد العجائبي قوته من الدين وأصالته من الثقافة العربية، بإرثها اللغوي الضخم، وتتمظهر الكرامات بكونها نسقا تحتويه العجائبية والغرابة، والرؤى والأحلام بوصفها خطابات روحية تخييلية، و إن كان أصلها الواقع ومردها إليه، فهي جزء مهم في التوليفة التي تشكل النَّص الرحلي الورثيلاني، زيادة على كون الرّحلة وعاء موسوعيًا لمختلف العلوم، فهي بوتقة جامعة لعادات شعوب ومجتمعات مختلفة.

حيث تكمن مهمة كتاب الرحلة في تطويع المعطيات لعملية الوصف للوقائع والأحداث التي تجري في البلد المقصود من خلال الرحلة، فيبدو الرحالة مجرد محص لما عاينه من معطيات تاريخية وجغرافية قيدت من حركته الكتابية، ومكنت الرحالة تصوير المشاهد المثيرة للعواطف والتأثر ايجابا وسلبا متكئا في ذلك على السرد أو الحكي.

خاتمة

بعد دراستنا لموضوع: " الرحلة الورثيلانية " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" لسيدي الحسين بن محمد الورثيلاني – مقاربة تحليلية-، نلخص أهم ما توصلنا إليه من النتائج التالية:

1.أدب الرحلة موضوع شيق، يكشف عن خبايا فكر الرحالة.

2.الرحلة جنس أدبي وفن جمالي يجمع بين وقائع وأحداث ممكنة وحقيقة وبين قلم ابداعي متميز يوظفه الرحالة حسب معطيات ومتطلبات تحفته الأدبية.

3.تعتبر رحلة الورثيلاني " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" مصدر تاريخي ومرجع ثقافي وديني مهم ومميز للمؤرخين والباحثين، وذلك من خلال الوصف الدقيق والمحكم للخريطة الجغرافية والشخصيات التاريخية التي صادفت هاته الرحلة.

4.تناولت الدراسة رحلة حجازية تعد من أهم وأبرز الرحلات الجزائرية في العهد العثماني.

5.تشكل الرحلة العلمية مصدرا تاريخيا مهما من مصادر تاريخ الجزائر خاصة خلال العهد العثماني وهذا من خلال أخذها بالوصف الدقيق لأحوال الجزائر: السياسية الاقتصادية العلمية والثقافية وبالتالي هي كنز نفيس من المعلومات المهمة والمفيدة.

6.جمع الورثيلاني في رحلته أجناسا أدبية متنوعة، الشعر والقصة، الأمثال والحكم وغيرها التي أعطت بعدا فنيا للرحلة.

7.الرحلة الورثيلانية شاهد عيان على السياسة والاقتصاد، والأحوال الاجتماعية، والثقافية للجزائر، وجميع البلدان العربية التي زارها الرحالة آنذاك.

8.ذكر الرحالة كثيرا المناطق التاريخية، والمعالم الأثرية، خاصة المقدسة منها، وتاريخ بعض المدن التي أقام بها أثناء رحلته، والأبنية والمساجد، وأضرحة اولياء الله الصالحين لما تمثله من خصوصية ثقافية لتلك البيئات.

9. اشتملت الرحلة على أسماء الأعلام والعلماء الذين عرفهم أثناء رحلته، أو ورد ذكرهم في كتب التاريخ، أو أخذه عن الرحالين السابقين.

10. تمثلت الرحلة الورثيلانية بمختلف الأنساق والبنى الثقافية، من أدبية فنية، معرفية واجتماعية، جعلت من النص الرحلي المنتج توليفة من الحقول المعرفية، والأجناس الأدبية المتداخلة، يكمل بعضها بعضا.

11. قدرة الرحالة على تصوير المشاهد المثيرة للعواطف، والتأثر ايجابا وسلبا، متكئا في ذلك على السرد والحكي.

قائمة المصادر

والمراجع

أولا: القرآن الكريم

القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم، مطبعة المختار، 1431هـ.

ثانيا: المصادر:

1. ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (رحل)، ج1، معجم اللغة العربية، دار الدعوة، 1990
2. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج2، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991.
3. ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد 3، ط1، 2000، مادة (رحل).
4. محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 2005
5. الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2008

ثالثا: المراجع:

1. أبو القاسم محمد الحنفاوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبر فونتانة، الجزائر، ج2.
2. أبو قاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983
3. أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981.
4. أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج1، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008.
5. حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991.

6. حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2000.

7. رعد الناصر، المنامات في الموروث الحكائي العربي، دراسة في النص الثقافي والبنية السردية، المدرسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

8. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط2

9. سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.

10. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006.

11. ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

12. طلعت ابراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزيات، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الغريب، القاهرة، ط1.

13. عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2006.

14. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996.

15. فدوى مالطي دوجلاس، بناء النص التراثي (دراسات في الأدب والتراجم)، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1985.

16. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.

17. محمد بن سيرين، منتخب الكلام في تفسير الأحلام، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010.

18. ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1999.

رابعا: الرسائل الجامعية:

1. حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة دكتوراه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد.
2. عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1519هـ/1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2016/2015.
3. نادية مفاتيح، آليات الكتابة في الرحلة الورثيلانية مقاربة سيميائية، رسالة ماجيستر، جامعة ورقلة، 2017

خامسا: المجلات العلمية

1. حبيب بوزوادة، المضامين العلمية في الرحلات الحجازية الجزائرية-رحلة الورثيلاني أنموذجا-، المجلد4، عدد خاص، مجلة آفاق فكرية، 2018
2. عبد الرحمان ناتش، الرحلة الورثيلانية (طبعة فونتانا 1908م) دراسة تحليلية ونقدية، ع23، المجلد13، مجلة الدراسات الإسلامية، 2022.
3. عبد القادر صحراوي، الرحلات الجزائرية إلى بلاد الحرمين من خلال رحلتي البجائي والورثيلاني، ع1، المجلد9، مجلة الحوار المتوسطي، 2008، جامعة بلعباس، الجزائر.

سادسا: المواقع الالكترونية.

www.elmarefa.com

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

الواجهة.

البسملة

الإهداء

الشكر

مقدمة:..... ....أ – ج

مدخل: ضبط المفاهيم والمصطلحات

1. تعريف الرحلة:.....10

.2. أنواع الرحلات:.....14

الفصل الأول: الرحلة الورثيلانية " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

تمهيد.....20

المبحث الأول: التعريف بالمؤلِف والمؤلَّف.....19

المبحث الثاني: منهج كتابة الرحلة الورثيلانية وقيمتها العلمية.....27

الفصل الثاني: مضامين الرحلة الورثيلانية

تمهيد.....35

المبحث الأول: المضمون العلمي في رحلة الورثيلاني.....34

المبحث الثاني: المضمون الديني:.....51

الفصل الثالث: جمالية الرحلة الورثيلانية – البناء الفني والأنساق الثقافية.

فهرس المحتويات

المبحث الأول: البناء الفني.

تمهيد.....62

المطلب الأول: الصورة الفنية.....64

المطلب الثاني: بنية الحكي في الرحلة الورثيلانية.....68

المبحث الثاني: الأنساق الثقافية التاريخية والاجتماعية لحسين الورثيلاني.....72

المطلب الأول: النسق الثقافي التاريخي للرحلة الورثيلانية.....73

المطلب الثاني: النسق الاجتماعي 75

خاتمة:.....79

قائمة المصادر والمراجع.....82

الملخص

الملخص:

تُصنف الرحلة الورثيلانية على أنّها من أفضل الرحلات الجزائرية من حيث الثراء المعرفي والزخم المعلوماتي التي قادتنا إلى المشرق وبالتحديد الحجاز والتي كانت وِجهة دينية بالدرجة الأولى غرضها أداء مناسك الحج، إلا أنّه كانت لمجالس العلم وحلقات الفقه والذكر النصيب الأكبر للتبادل العلمي والفكري بين مختلف العلماء والفقهاء.

ونستطيع القول، بأنّ هاته الرحلة تصلح بأن نصطلح عليها بما يسمى بالموسوعة وذلك لما تزخر به من معارف لغوية ودينية وثقافية واجتماعية وحتى دينية، تمس مجتمعات مختلفة مرّ عليها الرحالة في رحلته الشهيرة المميزة شكلا ومضمونا.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، الرحلة الورثيلانية، العهد العثماني، الحجاز.

Abstract :

The Werthelan trip is classified as one of the best Algerian trips in terms of knowledge richness and informational momentum that led us to the East, specifically the Hijaz, which was primarily a religious destination whose purpose was to perform the rituals of Hajj.

We can say that this trip is suitable for us to call it the so-called encyclopedia, because it is rich in linguistic, religious, cultural, social and even religious knowledge, affecting different societies that the traveler passed through on his famous and distinguished journey in form and content.

Keywords: travel literature, the Werthian journey, the Ottoman era, the Hijaz.

ملخص الرحلة الورثيلانية:

يتمحور كتاب " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" حول استنتاجات وملاحظات خرج بها الرحالة " حسين الورثيلاني" من خلال رحلاته الحجازية التي قام بها، حيث أنّه بين في كل رحلة وأخرى مدة ثلاثة عشر سنة مكنته من ترتيب حلقات وأبواب كتابه.

تطرق إلى الوصف الجغرافي والسرد التاريخي للبلاد العربية التي جرت بها الرحلة وحرص على وصف كل المناطق التي شاهدها، وتركت مصر في رحلته انطباع متميز ومتفرد في نفسه، حيث أنه أعجب بها ويتجلى ذلك في وصف تقاليد وعادات أهلها، أسواقها وأزقة مدنها، مع ذكر مساجدها، ومناراتها كمنارة الإسكندرية ومقاماتها كمقام السيدة نفيسة، وكان الجامع الأزهر من الأماكن التي شوقته بغية لقاء العلماء والفقهاء.

وفي الرحلة سرد لقائمة طويلة من تراجم الأولياء والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات سواء بوطنه، أو بالمناطق التي زارها، فقد حصر اهتمامه أكثر على التراجم وذكر الأحوال والأخبار على فترات، بحيث لم يخص على مذهباً من المذاهب أو فناً من الفنون، وعن دواعي الترجمة لصلحاء وطنه مثلا يقول:" غير أن صلحاء بلدنا لم يتعرض لهم أحد قبل ولا بعد لعدم الاعتناء وضيق المعيشة أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار...الأخيار والسادات الأبرار هم أمل سداد وصواب وخدمة رب الأرباب، أولوا فضل وعلم وأدب، وحلم وأنوارهم ساطعة، وأحوالهم مرتفعة وضمائرهم خاشعة ونفوسهم لله خاضعة جملة وتفصيلا".

وقد ركز في مؤلفه على أخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية وعن الفتح الإسلامي لبعض البلدان مع مقارنة ما أوردته المصادر التاريخية السابقة والمعاصرة لرحلته، ومن هذا الجانب ينظر إلى الرحلة على أنّها تاريخية فهو يتطرق إلى الفتح الإسلامي لإفريقيا منذ عهد عقبة بن نافع الذي ولاه

معاوية بن أبي سفيان، ذاكراً حقائق ذات قدر كبير من الأهمية خاصة بما يتعلق بالنواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية للمنطقة.

وعن مسار الرحلة حسب خط سيره ذهابا كالتالي: بني ورثيلان، مجانة، زمورة، بسكرة، سيدي عقبة، زلتين، بلاد سرت، برقة، الإسكندرية، القاهرة، المدينة، مكة...وأمّا طريق العودة فقد مرّ بالقاهرة والإسكندرية، طرابلس وتونس، الكاف، قسنطينة وزمورة ليصل على قريته ببني ورثيلان

اشتملت رحلته على معلومات في غاية الأهمية اتصلت بالحياة اليومية والحالة المعيشية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة، وطبيعة العادات في البلدان التي مرّ بها في سفره، وأثناء إقامته بالحجاز.